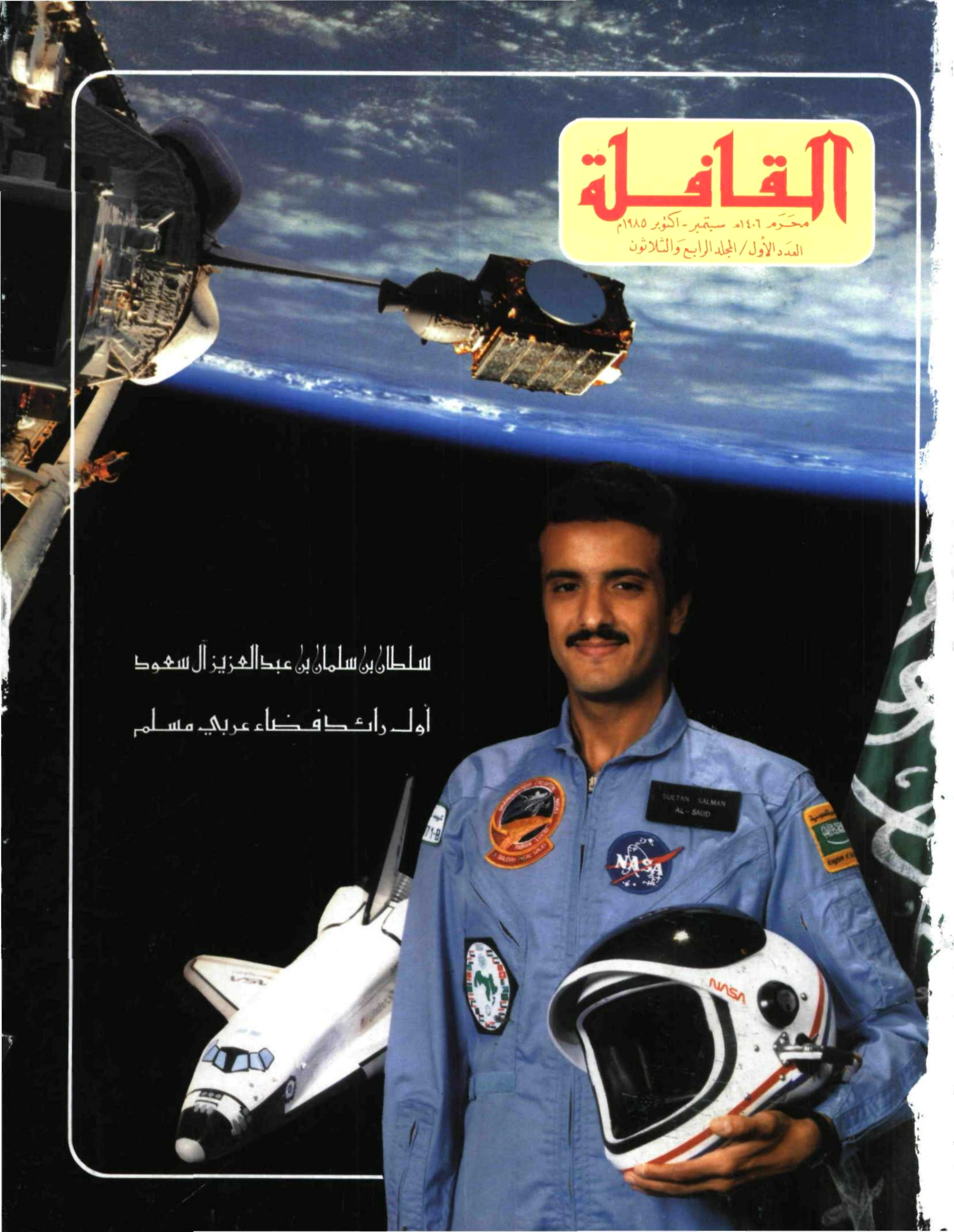


القافلة
محرم ١٤٠٦هـ سبتمبر - اكتوبر ١٩٨٥م
العدد الأول / المجلد الرابع والثلاثون
سلطان بن سلمان بن عبد العزيز آل سعود
أول رائد فضاء عربي مسلم
SULTAN SALMAN
AL-SAUD
NASA

بسم الله الرحمن الرحيم

القافلة

THE CARAVAN SEP./OCT. 1985

محرم ١٤٠٦هـ سبتمبر - اكتوبر ١٩٨٥م

العدد الأول / المجلد الرابع والثلاثون

تصدر شهرياً عن شركة أرامكو لموظفيها
إدارة العلاقات العامة

توزع مجاناً

المدير العام: فيصل محمد البسام

المدير المسؤول: اسماعيل ابراهيم نواب

رئيس التحرير: عبدالله حسين الغامدي

المحرر المساعد: عوني أبوكشك



سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز آل سعود
أول رائد فضاء عربي مسلم



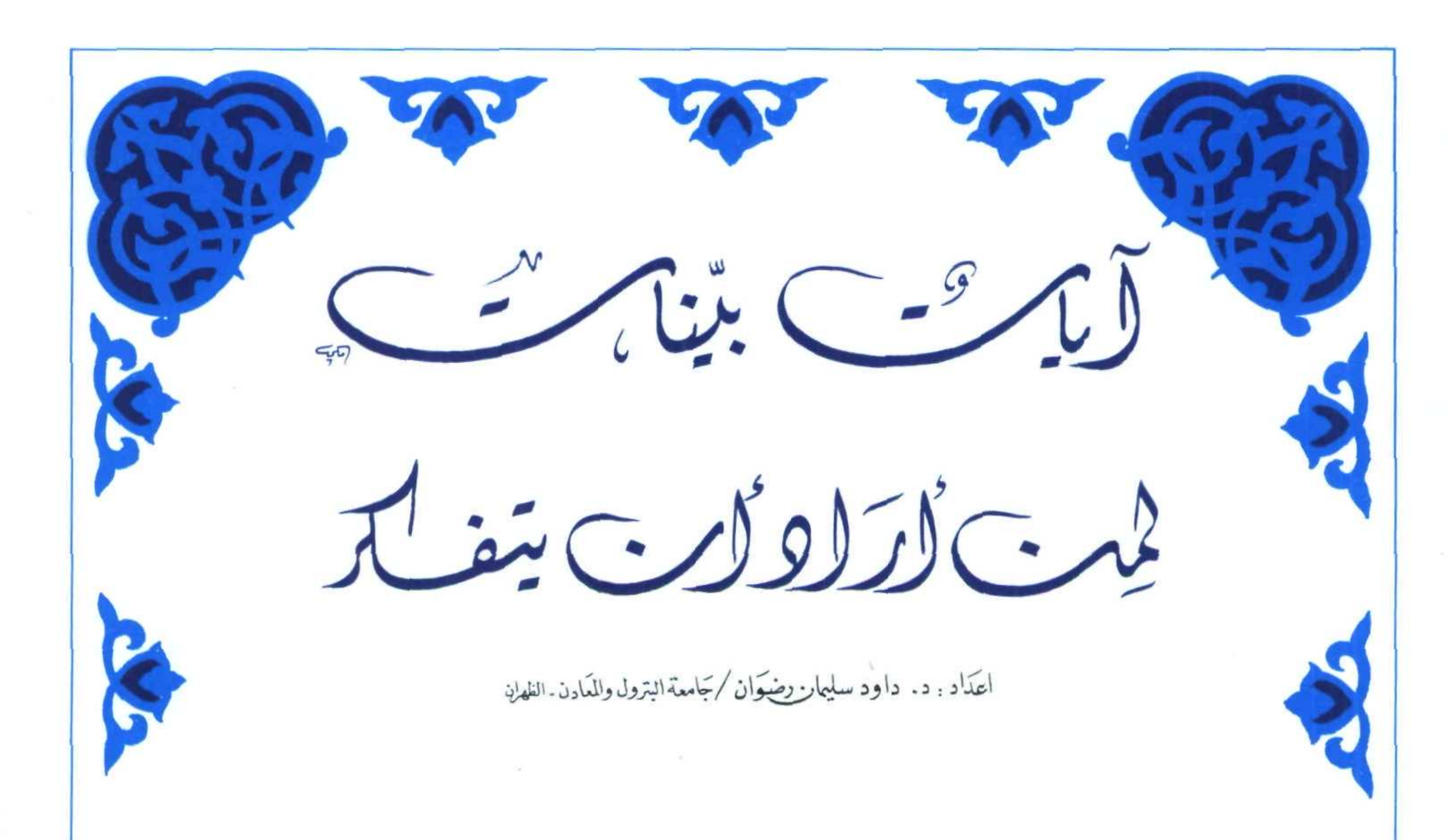
مدينة العلا ورحلة أربعة آلاف سنة



صناعة الورق بين الماضي والحاضر

العنوان
صندوق البريد رقم ١٣٨٩
الظهران - المملكة العربية السعودية

صممت وطبعت بمطابع الوفاء بالدمام
Designed & Printed By Al-Wafa P. Press- Dammam



﴿أيحسب الإنسٰن ألّن نجمع عظامه . بلى قٰدرين على أن نسوّي بنانه﴾ (سورة القيامة/٣ ، ٤)

وخلاصة ما ورد في الكتاب هو رد مفصل على ما طالعه فضيلة الشيخ أحمد في بعض الصحف وما ورد اليه من بعض المستفسرين حول زعم البعض ان رسول الله محمد ﷺ ، لم يكن أميا (بمعنى عدم إجادته للقراءة والكتابة) ، بل كان كسائر أقرانه من أبناء الأشراف في مجتمعه الذي عاش فيه ، يجيد القراءة والكتابة . وان صفة الأمية التي وصف بها رسول الله ، ﷺ ، هو كونه ينتمي الى « أم القرى » مكة المكرمة . والحق يقال أن شيخنا الفاضل ، جزاه الله خير الجزاء ، قد أورد في كتابه رده المسهب المدعم بالحجج والبراهين التي لا تقبل النقض معتمدا على ما جاء في السيرة النبوية الشريفة والرواية الصحيحة المتواترة لاثبات أمية الرسول الكريم (بمعنى عدم معرفته للقراءة والكتابة) .

مواقف متكررة

علمت من مطالعة الكتاب المذكور ان فارس هذه الفرية هو استاذ جامعي ممن يدعون انتسابهم للاسلام . وقد استرجعت عند مطالعتي الكتاب حادثة عشتها منذ ما يزيد على عشر سنوات ، عندما دعيت لحضور ندوة ثقافية ، وكنت مقيما خارج نطاق دائرة البلاد الاسلامية . ومرة أخرى كانت أمّية رسول الله الكريم محمد ، عليه الصلاة والسلام ، هي موضوع الندوة ، ومرة أخرى كان فارس الندوة أستاذ جامعي ولكنه في هذه المرة ليس ممن ينتمون الى الاسلام بل هو ممن يحاربونه بكل ما أوتوا .

وقد استرسل المحاضر في سرد الحجج التي ظنها داعمة لرأيه لإنكار أمّية الرسول الكريم محمد ، عليه الصلاة والسلام . وشكّك في صحّة السيرة وصدق الرواية حول هذه النقطة . ومما قاله المحاضر آنذاك أنّ محمداً كان كغيره من أبناء علية القوم في مكة المكرمة التي اطلق عليها اسم « ام القرى » ، وكان محاطاً بأصحاب يجيدون القراءة والكتابة وان الوضع الاجتماعي لقبيلة الرسول الكريم قبل البعثة ونشأة الرسول الكريم ومكانة قومه كل ذلك لا يعقل معه كونه عليه الصلاة والسلام أمّياً .

ما الغرض من هذه المحاولات الخبيثة ؟

ليس الغرض من هذه المحاولات هو نفي أمية الرسول الكريم خدمة لذاته أو للمعرفة العلمية ، فهو وان كان أمياً ، إلا أنه سيد بني آدم أجمعين بالعلم الذي زوده به ربه . بل ان الهدف الحقيقي الذي يكمن وراء هذه المحاولات الخبيثة هو تشكيك المسلمين بما سلموا به وتكذيب ما جاء في السيرة المحمدية الشريفة ومن ثمّ الطعن في صحة ما جاء به رسول الله محمد ﷺ ، وبالتالي التطاول على كتاب الله عز وجل وهو « القرآن الكريم » .

فالكثيرون من المجادلين المنكرين لرسالة الاسلام يلحّون على كون رسول الاسلام ملماً بأصول القراءة والكتابة وكان محاطا بأصحاب يجيدون القراءة والكتابة

ليصلوا الى القول بأنه ، ﷺ ، هو الذي قام بتأليف أو بصياغة آيات القرآن الكريم من عنده ومن محض تخيله بعد أن تم له الاطلاع على ما جاء في الكتب السماوية التي سبق نزولها على الأنبياء والمرسلين ، وكذلك بعد ان استوعب ما أنتجه العقل البشري من معرفة مخطوطة ومقروءة أو مسموعه في صورة قصص وحكايـات منقولة شفاهة .

ومن هذا المدخل ، يود المنكرون ان لو استطاعوا الطعن في تنزيل القرآن المجيد من لدن عزيز حميد من رب العالمين أوحى به على قلب رسوله الكريم النبي الأمي فبلّغه أصدق تبليغ وأشهد ربه على ذلك .

دفاعاً عن أمية سيد الأوائل والأواخر

الموقف الذي فرض نفسه علي من خلال حضوري لهذه الندوة ، يواجه الكثيرين غيري . فالطعن في صحة وصدق السيرة النبوية الشريفة هو الباب الذي يستسهل طَرْقه المشككون لينفذوا منه الى تحقيق أغراضهم الخبيثة . وهو لذلك ليس بالشيء الهين الذي يمكن لمسلم السكوت عليه وجعله يمر بلا وقفة رد تدحضه بالحقائق . لهذا كان علي أن أدافع عما آمنت وسلمت به . أدافع عن أمية سيد الأوائل والأواخر، رسول الله محمد، ﷺ .

كان الموقف ، كما يحل للبعض ، ممن أفسد الشيطان عقولهم وأضلهم عن الطريق القويم ، ان يصفه ، موقفاً علمياً موضوعياً لا يقبل رداً بغير دليل علمي مادي ملموس وموضوعي ومنطقي مقبول بعيداً عن المسلّمات الغيبية والأحاديث العاطفية (هكذا يواجهك ادعياء العلمية والنقاش الموضوعي ، المؤمنون بالمادية ، والموضوعية منهم بـراء) . كان عليَّ ان أقـدّم الدليل المطلوب بكل المواصفات التي ذكرت آنفا ، فلجأت الى كتاب الله الحكيم ، الذي يقول : ﴿ **إن هـٰذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين** ﴾ (سورة الاسراء الآية/٩) . لجأت الى آيتين قرآنيتين كريمتين بسيطتين في صياغتهما ، عظيمتين ، كغيرهما من آيات القرآن الكريم الحكيم ، في معانيهما ، قويتين في دلالتهما المادية وشاملتين في إجابتهما .

كانت الآيتان الكريمتان : ﴿ **أيحسب الإنسـٰن ألّن نجمع عظامه . بلى قـٰدرين على ان نسوّي بنانه** ﴾ (سورة القيامة الآية ٣ و ٤) هما مدار النقاش في تلك الندوة التي دعيت اليها للرد على من أنكر أمية الرسول الكريم محمد ، عليه الصلاة والسلام . لقد هداني الله الى أن أجد في هاتين الآيتين الكريمتين الأدلة العلمية المادية المحسوسة للرد الموضوعي العلمي على المجادلين المحدثين ممن يدعون الموضوعية والعقلانية وينسبون أنفسهم للعلم .

إن حجة هذا العصر الذي بلغ فيه العلم والمعرفة الانسانية درجة متقدمة ، وطغت فيه المادية على ما عداها ، هي البحث عن الأدلة العلمية المحسوسة حتى فيما يتعلق بالعقيدة .

انتفاء وجود الشيء عند انتفاء الحاجة اليه

كان علي ان استرجع الى أذهان وأسماع الحضور تلك القاعدة المادية البحتة والمسلم بها لدى العلماء بكل مجالات تخصصاتهم وعلى اختلاف تفكيرهم وأهوائهم ، وهي انتفاء وجود الشيء عندما تنتفي الحاجة أو الضرورة لوجوده .

هذه القاعدة المادية البحتة آمن بها العلماء وأصبحت لديهم من المسلمات البديهية ، حتى ان اتباع نظرية النشوء والارتقاء ، وهي نظرية مادية بحتة قد آمنوا بها واتخذوها منطلقاً رئيسياً لصياغة نظريتهم . وهذه النظرية تقول بأن وجود وتطور الشيء مرتهن بضرورة وجود الحاجة الى وجوده او تطوره . وهي بالتالي تقول بأن بقاء الأجناس يتطلب وجود عناصر ضرورية لهذا البقاء . وان انعدام جنس من الأجناس ، أو الأجناس جميعا ، التي منيت بالفناء كان نتيجة لعدم توفر العناصر الضرورية لوجودها .

إذا كان الأمر كذلك ، فلننظر الى الحالة التعليمية للرسول الكريم محمد ﷺ ، من هذه الزاوية المادية البحتة ، ونرى ما اذا كانت هناك حاجة ملحة او ضرورة حيوية لكونه ملما بالقراءة والكتابة من الاتيان بشيء لم يأت به او القيام بعمل لم يعمله لكونه غير ملم بالقراءة والكتابة ، أي لكونه أمّياً ، فاذا تبين لنا بصورة علمية ملموسة انتفاء ضرورة كون رسول الله محمد ، ﷺ ، متعلماً ، أي غير أمي بمعنى كونه ملماً بالقراءة والكتابة مجيدا لهما ، انتفت الحاجة لوجود هذا الشيء وعندئذ تكون السيرة هي المرجع الصحيح لاستقاء المعلومات الدقيقة عن حالة الرسول العلمية ، وما على المرء عندئذ إلا أن يسلم بما ورد في هذه السيرة من أدلة وبراهين على كون الرسول لا يجيد القراءة والكتابة أي بمعنى كونه لا يعرف القراءة والكتابة .

والآن لنستعرض الدلائل المادية والاتيان بالبراهين العلمية التي تثبت بصورة لا تقبل الجدل ، سواسية الحال بالنسبة للرسول الكريم ، لنتحقق من انه ، عليه الصلاة والسلام ، لم يكن باستطاعته وهو يجيد القراءة والكتابة ، من الاتيان بشيء اكثر أو اقل مما بلغه عن ربه وهو امي ، ما عليه الا البلاغ المبين لما يوحى به اليه من رب العالمين . والتبليغ بطبيعة الحال لا يتطلب ضرورة كون الرسول قارئاً وكاتباً .

﴿ **أيحسب الإنسـٰن ألّن نجمع عظامـه . بلى قـٰدرين على ان نسوّي بنانه** ﴾

أين تكمن الأدلة العلمية المادية في هاتين الآيتين الكريمتين اللتين صيغتا في يسر وسهولة على هيئة تساؤل واجابة ؟

أولا : لننظر الى صيغة السؤال التي تحمل ضمن طياتها إعجازاً خفياً لنرى :

— ان السؤال يدور حول إمكان جمع عظام الانسان وقد جاءت الصيغة على لسان الانسان ﴿ **أيحسب الانسان ...** ﴾

— ما الذي يتطلبه طرح هذا السؤال من معرفة علمية وما هي مبرراته ؟؟

— هل طرح هذا التساؤل يتطلب بالضرورة معرفة الرسول الكريم محمد ، عليه الصلاة والسلام ، بالقراءة والكتابة وإحاطته بأصحاب متعلمين أو مثقفين ؟ لكي يتمكن من طرح هذا التساؤل ؟؟

— لكي نصل الى طرح تساؤل ما ، استناداً الى أساليب البحث العلمي المادي الصرف ، علينا أن نلم بمبررات طرحه ودواعيه . فما هي الشروط الواجب توفرها والحقائق العلمية المطلوب معرفتها حق المعرفة والتيقن من صحتها ، لنتمكن من طرح التساؤل الذي جاءت به الآية الكريمة ﴿ **أيحسب الإنسـٰن ألّن نجمع**

عظامه ﴾ .

— إن ذلك يتطلب التيقن بصفة قطعية من عدة أمور جوهرية أهمها :

★ القطع بتعدد وكثرة أفراد بني الانسان منذ بداية خلقه الى ان يرث الله الأرض ومن عليها .

★ التأكد بطريقة ، أو بطرق علمية لا تقبل النقض من إمكان حفظ العظام لفترات زمنية تطول الى ملايين السنين .

★ التأكد من أن نواتج اندثار العظام على درجة عالية من الثبات الكيميائي تحت الظروف الجوية المتقلبة .

وهذا يتطلب بطبيعة الحال معرفة التركيب الكيميائي الدقيق للعظام ومعرفة نواتج اندثارها وخصائص هذه النواتج(★) .

هذه المتطلبات ، التي تؤلف الأسس المادية الضرورية لصياغة التساؤل **﴿ أيحسب الإنسـٰن ألّن نجمع عظامه ﴾** ، لم تكن معروفة فيما انتجته المعرفة الانسانية حين نزول الآية الكريمة . سواء كان ذلك في صورة مدوّنة مقروءة أم في قصص وحكايات تنقل شفاهة . وهي معرفة الأمور سالفة الذكر ، في مجملها كانت خارج نطاق محيط المعرفة الانسانية آنذاك . فهل صياغة الآية الكريمة **﴿ أيحسب الإنسـٰن ألّن نجمع عظامه ﴾** كانت تستدعي أو تتطلب كون سيد البشر رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام ، ملماً بالقراءة والكتابة ؟ أو بصياغة أخرى للسؤال ، هل كانت هناك ضرورة موضوعية وحيوية تحتم كون الرسول الكريم ملما بأصول القراءة والكتابة أو قارئا وكاتباً ليتمكن من صياغة هذه الآية الكريمة ؟ .

الجواب الموضوعي القائم على المنطق العلمي والمنصف ، هو بلا شك بالنفي . لأن صياغة هذه الآية الكريمة على بساطتها وسهولة ألفاظها تتطلب معرفة كانت حين نزولها تقع وراء إمكان البشرية بأجمعها وخارج نطاق معرفتها . كما انها أيضا كانت خارج إمكان الاستقراء او الاستنباط العلمي لأي فرد من أفراد الانسانية مهما سما خياله واتسعت آفاق معرفته كنتيجة لاطلاعه او قراءاته .

فاذا وجدنا مثل هذه الآية الكريمة ، وغيرها الكثير ، في القرآن الكريم ، فان الموضوعية العلمية والانصاف يتطلبان منا الاقرار بكون هذه الآية قد صيغت من قبل من يعلم الحقيقة المطلقة ، الذي وسع علمه كل شيء وأحاط بكل شيء علما ، وان هذه الصياغة لا يعقل ان يشارك فيها بشر ، وان تبليغها على لسان بشر ما ، وهو رسول الله ، محمد ﷺ ، لا يستدعي أو يتطلب ضرورة كونه قارئا وكاتباً . فالتبليغ لا يتطلب ضرورة توفر ذلك لأنه لا يعدو النقل المجرد بدون اي تأثير من المبلغ .

ثانيا : لنخطو خطوة الى الأمام في مناقشتنا للآيتين الكريمتين ، ولننظر الى صيغة الجواب : **﴿ بلى قـٰدرين على أن نسوِّي بنانه ﴾** . فماذا نجد ؟

★ ان الاجابة صيغت على لسان طرف آخر خفي (غير الانسان) .

★ الاجابة لا تنتمي الى جنس السؤال . وهي لم تؤكد او تنفي التساؤل بل جاءت اكثر منه إعجازاً .

وهنا يجدر بنا ان نتساءل : ما علاقة هذه الاجابة التي جاءت لتوضح القدرة على تسوية البنان ، للرد على تساؤل عن إمكان جمع العظام ؟!

وهنـا يتجلـى الاعجـاز المـادي المحسوس في أوضح صوره ، من خلال الجمع بين هاتين الآيتين الكريمتين في صيغة سؤال واجابة **﴿ أيحسب الإنسـٰن ألّن نجمع عظامه . بلى قـٰدرين على ان نسوِّي بنانه ﴾** ولسوف يتضح لنا بطريقة لا تقبل المواربة ، ان هذا الاعجاز قد تجاوز مقدرة البشرية الحسية وتخطى مقدرتها التخيلية في الوقت الذي نزلت فيه هاتان الآيتان على رسول الله . وان صياغتهما تقف دونها مقدرة البشر مهما بلغت عبقريته ونبوغه ، ومهما أوتي من السبق في آفاق العلم والمعرفة سواء أكان مجيدا للقراءة والكتابة ام كان عديمها . فكيف ذلك ؟ اليك الدليل .

— انظر في جنس كل من السؤال والاجابة لتتبين عدم انتمائهما الى بعضهما البعض بطريقة مباشرة او غير مباشرة رغم ما بينهما من قرابة وصلة من حيث انهما سؤال واجابة . فالسؤال صيغ على لسان الانسان ، واما الاجابة فقد صيغت على لسان من خلق الانسان وأوجده من عدم .

إذن فالسؤال يتناسب مع مقدرة الانسان وإمكاناته على التساؤل . والاجابة تتناسب مع مقدرة الخالق على الاجابة . ولا شك ان المقدرة على التساؤل والاجابة تتناسب مع معرفة كل من الطرفين بحيثيات ومتطلبات طرح السؤال وتقديم الاجابة .

— الذي يعلم أساليب البحث والاستقراء العلمي المادي يتضح له استحالة ان يأتي بشر باجابة عن سؤال أو تساؤل لا تمت الى جنسه بصلة رغم كونها تشتمل على بعض عناصره (عنصر الاعجاز في كل منهما) وتتفوق عليه .

فهل كان سيد البشر ، رسول الله محمد ، عليه الصلاة والسلام ، قادرا ، لو علم القراءة والكتابة ، على الاتيان بمثل هذا التساؤل والاجابة ؟ وهل الانسانية جميعها كانت قادرة على ذلك ؟ مرة اخرى يتضح لنا بطريقة علمية وموضوعية ضرورة ان تكون الاجابة بالنفي . ومرة اخرى (وكم من مرة باستطاعتنا استنادا الى آيات القرآن الكريم ، ان نثبت استحالة مقدرة الانسانية وقصورها دون صياغة اية واحدة من آيات القرآن الكريم مهما بلغت معرفتها العلمية مراتب متقدمة .

﴿ وان كنتم في ريب مما انزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فـإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التي وقودهـا النـاس والحجارة أعدّت للكـٰفرين ﴾ (سورة البقرة الآية ٢٣ ، ٢٤) .

﴿ أم يقولون افتراه قل فأتـوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. بل كذبوا بما لم يحيطـوا بعلمه ولما يأتهم تأويله، كذلك كذب الذين من قبلهم، فانظر كيف كان عـٰقبة الظـٰلمين ﴾ سورة يونس الآية ٣٨ ، ٣٩ .

﴿ أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريـٰت وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. فالّم يستجيبوا لكم فاعلموا انما انزل بعلم الله وأن لا إله الا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ (سورة هود الاية ١٣ ، ١٤) .

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرءان لا يأتون بمثله ولو

كان بعضهم لبعض ظهيرا . ولقد صرفنا في هذا القرءان من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ (سورة الإسراء الآية ٨٨ ، ٨٩) .

فاذا كان الامر كذلك ، فان كون الرسول الكريم قارئا وكاتبا أو أمّيا لا يحسن القراءة والكتابة ، لا يزيد في مقدرته او ينقصها شيئا . وهو ما يعني سواسية الحالة . ومرة أخرى تنتفي ضرورة كونه (الرسول الكريم) ملما بأصول القراءة والكتابة .

الأدلة المادية على إعجاز الاجابة :

﴿ **بلى قـدرين على ان نسوّي بنانه** ﴾

★ لصياغة هذه الاجابة لا بد من توفر المعرفة العلمية لعدة أمور جوهرية من أهمها ، معرفة البنان .

ثم ما هو البنان ؟

البنان ويقصد بها أطراف الأصابع أو نهاياتها . ماذا يجد المرء لو نظر الى نهايات أصابعه أو أطرافها ؟ ان الآية الكريمة ﴿**بلى قادرين على ان نسوي بنانه** ﴾ تحثنا على التمعن والنظر والتدقيق في هذه الاطراف ، فماذا نجد ؟

أطل النظر والتدقيق في أطراف أصابعك . وان استطعت ان تضعها تحت عدسة مكبرة فافعل . وستجد انها ليست سوى اطراف لحمية مغطاة بطبقة من جلدك ، مشكلة في هيئة هندسية معينة . وهنا يؤكد لك ان العلم الحديث بوسائله وطرقه المتعددة والمتنوعة قد أثبت ان هذه الهيئة خاصة بك وهي تميزك عن غيرك من بني البشر . كما انها لم ولن تتكرر بنفس الشكل والهيئة في غيرك ولو كنت احد توأمين .

★ التيقن بطريقة علمية لا تقبل النقض من استحالة حفظ البنان لمدد زمنية طويلة وهي محتفظة بهيئتها وشكلها الهندسي من صفات البنان أو خواصها .

★ التيقن بطريقة أو بطرق علمية لا تقبل النقض من وجود امكان لا ينضب لها معين ، تسمح بخلق أفراد من بني الانسان ببنان مختلفة الشكل والهيئة الهندسية مهما بلغ تكاثر هؤلاء الأفراد ، منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم ، عليه السلام ، الى ان يرث الارض ومن عليها .

★ لمعرفة هذه المتطلبات المعجزة ، على الأقل في الفترة التي نزلت فيها الاية الكريمة والى وقت قريب جدا من الوقت الذي نعيشه ، كان لا بد من القيام بالدراسات واجراء التحاليل والقياسات العديدة وعمل الاحصاءات المستفيضة واستخدام المجاهر وطرق الفحص الدقيق لاطراف الأصابع (البنان) لأفراد الجنس البشري بأكمله منذ خلق الله آدم عليه السلام ، الى الفترة التي نزلت فيها الآية الكريمة على أقل تقدير ، ثم رصد وتبويب وترتيب البيانات والمعلومات التي يتم الحصول عليها في بنوك للمعلومات واعداد الجداول واشتقاق المعادلات الرياضية لمحاكاة الشكل الهندسي للهيئة التركيبية للأفراد الذين تم اجراء القياسات والدراسات عليهم ومن ثم استنباط الأسس التي تؤكد خصوصية تشكيل البنان لكل فرد من أفراد الجنس البشري .

ثم التيقن بعد ذلك من وجود امكان حقيقي لخلق افراد لا حصر لعددهم من الجنس البشري ببنان مختلفة الشكل والهيئة . وهذا يتطلب بالطبع معرفة كيفية تكون اللحم ؟ وما هي الوحدات الأساسية لبنائه ؟ وما هي الظروف أو القوانين التي تحكم تشكل اللحم ، على الأقل في طبقة الجلد ، في صور وهيئات هندسية متنوعة ؟ .

إن معرفة هذه المتطلبات لم تتحقق للانسانية جمعاء إلا في النصف الثاني من هذا القرن الذي نعيشه . كما ان أية دلالة عليها لم تكن مدونة فيما انتجه العقل البشري من معرفة عملية سبقت نزول الرسالة السماوية على نبي الهدى رسول الله ، محمد بن عبدالله ، عليه الصلاة والسلام .

لقد تطلبت معرفة هذه الحقائق من العلماء والباحثين بذل الجهد والمثابرة على البحث العلمي الدقيق وقبول التحدي المعجز للكشف عن اسرار الخلية الحية ومعرفة كيفية انقسامها ونموها واسرارها . ولم تتحقق لهم مآربهم هذه الا في النصف الأخير من هذا القرن ، عندما وجدوا ضالتهم في اكتشاف التركيب الدقيق ، وعلى وجه الخصوص ، الشكل البنائي الهندسي لما يعرف الآن بالحامض النووي . الحامض الذي يوجد في نواة الخلية الحية . وهو المادة التي تحتفظ بأسرار وخطط بناء جسم الكائن الحي ، وهو المسؤول الأول عن تشكيل بنائه ، وتوجيه تصرفاته وهو اللوح الذي يحفظ خصوصية كل فرد ويميزه عمن سواه من بني جنسه والأجناس الأخرى . ولا أظنني أكون مسرفا ان قلت : ان في جوفه وصلب بنائه (بناء الحامض النووي) يرقد ما قدر على الفرد ان يكونه ﴿ **قُتِلَ الإنسـٰن ما أكفره . من أيّ شيء خلقه . من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسّره** ﴾ (سورة عبس/الآية ١٧ ، ٢٠) .

الحامض النووي

يتركب الحامض النووي (الشكل رقم ١) من مجموعة من القواعد العضوية ، أربعة قواعد أساسية هي : تيمين ، ادينين ، سيتوزين ، جوانين ، (الشكل رقم ٢) ، ومجموعات من السكريات والفوسفات مرابطة جميعها مع بعضها البعض في هيئة سلسلة لولبية مزدوجة الخيط (الشكل رقم ٣) . وخيطاها مجدولان الى بعضهما البعض ليشكلا ضفيرة متناسقة الشكل متعددة الخصائص والوظائف . بواسطة هذا الحامض النووي ، يتم اعداد البساط المناسب لتجهيز وحدات بناء البروتين « اللحم » وترابط هذه الوحدات وتتابع ترابطها في نظام محدد ومحكم ، وعلى اكتفاء هذا الحامض تقع مسؤولية تشكيل البنان .

يا لها من مصادفة عجيبة ان يكتشف العلم سر انشطار الخلية الحية وتكاثرها ونموها ونقلها للصفات والخصائص الوراثية من جيل الى آخر ، واضفائها الخصوصية لكل فرد من افراد الجنس البشري ، سواء أكان ذلك في اطراف أصابعه « بنائه » أم كان في تصرفاته ومسيرة حياته ، ويجده كامنا في كون الحامض النووي في الخلية مؤلفا من زوج من الخيوط المتتامة التي يكمل كل منهما الآخر في تزاوج محكم . فسبحان الذي خلقنا ، حتى في أدق صورنا ، أزواجا ﴿ **وخلقنـٰكم أزوٰجاً** ﴾ (سورة النبأ الآية/٨) .

مما يتكون اللحم وكيف ينشأ ؟

وما هي وحدات بنائه الأساسية ؟

اللحـــم ، ويعـــرف علميـــا بالبروتينات ، يتكون من مواد كيميائية بسيطة بالرغم من تعقد بنائه الهيكلي « الجزئي » العام (الشكل رقم ٥) . فجزيء البروتين ينشأ نتيجة لترابط مجموعة من الأحماض العضوية المعروفة بالاحماض الأمينية . وهذه الأخيرة هي وحدات البناء الأساسية للبروتين ، وهي تتركب من عناصر النيتروجين والكربون والهيدروجين والاكسجين . وعندما يتحلل اللحم تكون نواتج اندثاره انطلاق هذه العناصر في صورتها العنصرية او في صورة مركباتها البسيطة مثل غاز النشادر (للنيتروجين) وبخار الماء (للهيدروجين والاكسجين) وغاز ثاني أوكسيد الكربون (للكربون والاكسجين) . وجميع هذه العناصر أو المركبات البسيطة لا تحمل اية صفة من صفـات اللحـم او خصائص اطـراف الأصابع « البنان » .

والأحماض الأمينية وحدات بناء غير متماثلة في هيكلها الجزئي العام ، وهي عبارة عن عشرين وحدة بناء مختلفة الشكل والهيكل رغم تشابهها في التركيب الكيميائي (الجدول رقم ١) .

أما جزيئات البروتين « اللحم » التي تنشأ نتيجة لترابط الأحماض الأمينية فهي عبارة عن سلاسل من الأحماض الأمينية « وحدات البناء الأساسية » مترابطة بعضها ببعض من خلال روابط كيميائية متينة (الشكل — ٦) .

وتختـــلف هـــذه الجزيــــئات « السلاسل » في الأطوال ، أي في عدد وحدات البناء التي تتألف منها السلاسل تبعا لنوع البروتين الذي تنتمي اليه . وهي ، أي سلاسل البروتين ، لولبية الشكل أحادية الخيط (الشكل رقم ٧) ، وتتألف في المتوسط من حوالي ١٠٠ الى ١٢٠ وحدة بناء أولية « حامض اميني » ، وفي بعض الحالات يصل طولها الى اكثر من ذلك . وبكلمات بسيطة نقول ، ان هناك عشرين حامضا امينيا « عشرون وحدة بناء مختلفة في شكلهـا وهيكلها العام متشابهة في تركيبها الكيميائي» « توجد في نواة الخلية الحية جاهزة ليختار منها لولب الحامض النووي ما يشاء ، وما يشاء الا ما شاء له الله وقدره ، لبناء جزيئات البروتين « اللحم » . ويتم ذلك طبقا لخطة محددة ومقدرة مسبقا ومحكومة من خلال تتابع وحدات بناء الحامض النووي ، أي البساط الذي يتم على اكتافه بناء البروتين .

وبعملية حسابية بسيطة بامكاننا ان نتبين ان هناك امكانا حقيقيا لبناء جزيئات بروتين مختلفة عن بعضها البعض من حيث تتابع وحدات بنائها ، وبالتالي هيئتها وشكلها الهندسي العام ، بما يتناسب مع اختلاف تتابع وحدات بنائها الأساسية في لوالبها التي تتألف في المتوسط من مائة الى مائة وعشرين وحدة بناء مختلفة ، ان هذا الامكان يعادل ٢٠ مرفوعة الى الأس ١٠٠ أو ١٢٠ (٢٠ الى ٢٠) .

هذه هي قمة الاعجاز . أي رقم هذا الذي يمثل امكان خلق افراد من بني البشر باطراف اصابع مختلفة الشكل الهندسي والهيكل العام لتكون كل بنان خاصة بصاحبها لا يشاركه فيها احد ولا تتكرر في غيره على مدى الدهر . هل باستطاعة فرد ما من بني البشر ان يتصور او يتخيل هذا العدد ٢٠(١٠٠) أو ٢٠(١٠٠) ؟! إن مثل هذا العدد يعجز المرء عن تقريبه ليدركه العقل البشري وهو بلا شك يقع خارج نطاق قدرة المرء على التخيل .

ولكي يعرف القارىء أي إعجاز يكمن في هذا العدد ، تكفي مقارنته بالعدد الذي يقدره العلماء للذرات « وحدات البناء الأساسية للمادة سواء أكانت عنصرية ام مركبة ، جامدة ام سائلة أم غازية » التي يتألف منها كوكبنا « الأرض ومحيطها » بجوامده وسوائله وغازاته . انهم يقدرون هذا العدد بما لا يزيد على ١٠ للأس ٨٠ ثمانين [أي ١٠(٨٠)] . ما شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله الذي أوحى الى نبيه ورسوله الكريم محمد ، عليه الصلاة والسلام .

والآن ، هل آن لنا ، بعد ان تعرفنا الى هذا الاعجاز ، ان نتساءل عما اذا كانت هناك ضرورة حيوية تستلزم كون الرسول الكريم ، ﷺ ، ملما بالقراءة والكتابة ليأتي بعمل لم يقم به ، أو ليقل شيئا لم يقله نظرا لكونه أميا ، أي لا يقرأ ولا يكتب .

وهل كان باستطاعته ، لو علم القراءة والكتابة وساعده صحابته الذين يمثلون عُلية القوم ، وهم يجيدون القراءة والكتابة ، ان يأتي بهذه الآية أو بهاتين الآيتين الكريمتين ﴿ **أيحسب الإنسـٰن ألّن نجمع عظامه . بلى قـٰدرين على ان نسوّي بنانه** ﴾ من عنده ومن محض اجتهاده ومقدرته على التخيل والابداع ؟؟ . وهل معرفة الحقائق والأمور المعجزة التي اوضحناها كانت في متناول البشرية حتى يحيط بها الرسول وأتباعه ؟!

فاذا كان الجواب بالنفي القاطع ، وهو بكل الموضوعية والعلمية وبكل التأكد لذلك ، أفلا تنتفي ضرورة كون رسول الله محمد ، ﷺ ، قارئاً وكاتباً؟؟ .

فاذا كان الاعجاز خارج نطاق مقدرته ومقدرة الانسانية جمعاء ، أفلا تتساوى عندئذ حالة القارىء والأمي ؟ وإذا بلغ نبي الرحمة والهدى شيئا ، أوضحنا فيما تقدم بعض إعجازه ، أفلا يكون ذلك تأكيداً قاطعاً بأنه لا ينطق عن الهوى ؟ ﴿ **وما ينطق عن الهوى . إن هو إلّا وحيٌ يوحىٰ . علمه شديد القوى** ﴾ (سورة النجم الآية ٣ ، ٤ ، ٥ .

خـاتمـة

أردت بهذه الدراسة المتواضعة أن أبين بعض ما أراه من إعجاز علمي موضوعي مادي ملموس في آيتين كريمتين من آيات القرآن الكريم استندت اليهما في يوم من الأيام للرد على من انكر أمية سيد الأوائل والأواخر ، نبي الله ورسوله محمد ، عليه الصلاة والسلام .

والله أسأل أن أكون قد وفّقت فيما سعيت اليه وأدعوه عزّ وجلّ ان يلهمنا السداد والتوفيق . وصدق الله عز وجل اذ يقول : ﴿ **وقد جئنـٰهم بكتاب فصّلنـٰه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ (سورة الأعراف الآية/٥) وصدق رسوله الكريم حين قال : تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي : كتاب الله وسُنّتي □

أبو القاسم الزياني

١١٤٧ - ١٢٤٩هـ / ١٧٣٤ - ١٨٣٣م

وكتابة الترجمانة الكبرى

بقلم: د. نقولا زيادة / بيروت

من المألوف، عندما نود ان نتحدث عن كتاب ومؤلفه، ان نعرض لحياة المؤلف اولا، ثم ننتقل الى الحديث عن الكتاب. لكننا نود، في هذه المناسبة، ان نعكس الترتيب، فنتحدث عن الكتاب اولا، ثم ننتقل للحديث عن المؤلف.

« الترجمانة الكبرى في اخبار المعمور برا وبحرا » كتاب طريف، ان لم نقل انه فريد من نوعه. فهو كتاب يحوي، كما قال عنه مؤلفه في خاتمة كتابه: « هذه الرحلة المسماة الترجمانة الكبرى التي جمعت مدن المعمور كله برا وبحرا، ولم تقتصر على ما في الرشاطي من الامصار، ولا على ما جمعه ابن عبدالمنعم في « الروض المعطار »، وما جلبه ابن الجوزي من اخبار البحار والقفار، وما في « جزيرة العجائب » من الجزر والعيون والآبار والانهار، وما في عجائب المقدور من نفائس الاخبار، وما كان بعدهم من الحوادث والآثار. وأبرزت ما أغفلوه أو لم يكن لهم به شعور وانذار. وحليتها بحوادث ونوادر وحكايات، جلبها المؤرخون الكبار كالامام ابن قتيبة والمسعودي والطبري والذهبي وابن عساكر والبكري والبلاذري وابن كثير وابن خلدون ... قيدنا من عند كلهم اوفر نصيب، وما يناسب ذلك من البراهين القاطعة، من التفسير والفقه والحديث، وشواهد العرب قديمهم والحديث، للرد على اليهود والمجوس وأهل التثليث، وأهل البدعة والاعتقاد الخبيث ... وكان الفراغ من تخريجها في ثاني عشر المولد الشريف من عام ١٢٣٣ على يد افقر العبيد واحوجهم لرحمة الله ومغفرته بلقاسم بن أحمد الزياني، غفر الله ذنبه وستر عيبه، آمين ».

فالترجمانة الكبرى، التي هي بين ايدينا الآن، والتي حررها ونشرها عبدالكريم الغيلالي في الرباط ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، هي، على ما يصفها مؤلفها، فضلا عما تحتويه مما نقل عن اصحاب كتب الجغرافية والرحلة والتاريخ، أنواع من المعارف حصل عليها الزياني نفسه اثناء تنقله ورحلاته.

فقد كان ابوالقاسم الزياني عندما يزور مكانا يصفه جغرافيا كما عرفه شخصيا، وينقل عن الأوائل ما رووه وصفا له وتاريخا لأحداثه. وفي الكتاب معلومات اثرية هي طبعا وصفية أكثر منها كشفية أو تنقيبية. وكان الزياني يتنقل في البلاد مفتح الذهن والعين والأذن، كان مستعدا ان يعرف وان يتعلم. ولكن الزياني أدرك ايضا ان ثمة مناطق لم يزرها، واراد لقرائه ان يعرفوها، فنقل اخبارها، الوصف الجغرافي اولا، والحدث التاريخي ثانيا، عن اهل العلم الماضين.

فالرجل زار مصر وبلاد الشام وبلاد الأتراك، فكان ما كتبه جماع المعرفة الشخصية والمادة المدونة. لكنه لما تناول الصين والهند (ص ٢٤٩ — ٢٥٠) واقاليم العالم (ص ٢٨٨ — ٣٤١) وأنواع الأحجار (ص ٣٤١ — ٣٥١) — ونحن نكتفي هنا بالامثلة، فقد نقل ما جاء في الترجمانة عن مصادر قديمة، أو لعل بعضها كان حديثا نسبيا، ولكنه نقل ورتب ودون، دون ان تكون له معرفة مباشرة بأي من تلك الجهات أو المناطق. وقد يحدث انه شافه بعض من لقيه فحصل منه على قصة أو حديث أو وصف لمكان ما، وقد يكون شاهده وقد لا يكون زاره، فيضمه الى ما رواه أو نقله.

الا ان هذا الجزء من الترجمانة، على انه كبير، لعله يشغل نصفها أو يكاد، فهو الجزء الأقل أهمية في رأينا. ذلك ان الأصل في هذا الكتاب انه يدور حول

مؤلفه . فهو اساسا ترجمة ذاتية ، ولو انها ليست تامة ، وتسجيل دقيق لما شاهده وزاره ورآه من الاماكن ، وتوثيق لما دار من الحديث مع اؤلئك الذين اجتمع بهم في الديار المقدسة ومصر واستانبول وشمال افريقية . فالمحور الذي تدور الترجمانة الكبرى حوله هو ابوالقاسم الزياني .

ومن الامور المستملحة في «الترجمانة» هو ان مؤلفها لم يقتصر على التدوين ، بل انها تحوي الرأي الخاص . فالافراد الذين يلقاهم ابوالقاسم ، والاحداث التي يدونها ، كثيرا ما يضيف اليها حكمه أو رأيه أو انطباعه .

وثمة امر آخر حري بالاهتمام في الترجمانة وهي انها كتاب يقرأ بكثير من المتعة . فاسلوبها طلي ، والسرد فيها جلي ، واللغة سلسة مطواعة . وقد يشعر القارىء انه يمكن ان يمر بالاقاليم وذكرها لماما ، لكنه لا يمكنه ان يفعل ذلك عندما يكون «ابوالقاسم» محور الحديث .

والترجمانة موثقة بالنسبة للمنقول . فهي ، كما يقول مؤلفها عنها ، المروي والمأخوذ والمقتبس والمنقول عن الآخرين باد للعيان واضح للقارىء لا لبس فيه ولا ابهام .

والترجمانة من حيث رحلات المؤلف ، ابي القاسم الزياني ، تروي اخبار رحلات ثلاث قام بها المؤلف : الاولى الى الحجاز ومصر (١١٦٩ — ١١٧٢هـ/ ١٧٥٥ — ١٧٥٨م) ، والثانية كانت الى الاستانة سفيرا لملك المغرب (١٢٠٠هـ/ ١٧٨٦م) ، والثالثة كانت زيارة للمشرق (١٢٠٦هـ/١٧٩٢م) . ولست اكتم القراء ان هذه هي أطرف اقسام الترجمانة ، واكثرها امتاعا .

ولد أبو القاسم الزياني ، مؤلف «الترجمانة الكبرى» ، في فاس سنة (١١٤٧/ ١٧٣٥) . وقد كان جده يؤم الصلاة في عهد المولى اسماعيل ، سلطان المغرب (١٠٨٢ — ١١٣٩هـ/١٦٧٢ — ١٧٢٧م) . وقد مر المغرب ، بعد وفاة اسماعيل ، بفترة كانت غاية في الاضطراب . لذلك اعتزم عمر ، والد ابي القاسم ، الرحيل عن المغرب والاستقرار مجاورا في المدينة المنورة . فحزم أمره وخرج سنة ١١٦٩هـ/ ١٧٥٥م ، بعد ان باع دارين كان يملكهما بفاس ، وكتباً كان والده قد خلفها ، وجمع من ذلك ما يبلغه مراده .

كان ابوالقاسم في الثالثة والعشرين من سنه لما رحل مع والديه عن المغرب . وكان قد تلقى العلم عن ابيه واصدقاء ابيه ، وهم في الطبقة الاولى من أهل المعرفة في فاس . فنال حظه من الفقه والحديث والتفسير والنحو والمنطق . وكان ثمة كناش لجده ، فضلا عن كناشات العائلة الأخرى ، هو الذي نبهه للتاريخ والانساب . ويرى الاستاذ عبدالله كنون ان هذا الكناش كانت فيه بعض اسرار الحرف والجدول وغيرهما .

بلغت الاسرة مصر ، واشار بعضهم على والد ابي القاسم بركوب البحر الاحمر ، واشترى له سلعة بقصد التجارة . فلما كانوا في مرسى ينبع تكسر المركب وضاعت السلعة وتلفت الأسباب . عندها اخرجت والدته من حزامها ٣٠٠ دينار ، اكترت الاسرة منها لجدة ومكة ، وحصلت الحج ، وعادت بعد ذلك الى مصر تمهيدا للعودة الى المغرب ، فالمجاورة لم تعد ممكنة . ومن مصر ابحرت الاسرة الى ايطالية ، ثم الى مرسيليا ومنها الى برشلونة ثم الى تطوان وفاس . وكانت مدة الرحلة ثلاث سنوات ، كانت فيها تجربة طيبة للشاب ابي القاسم .

وقبل وصول الاسرة الى فاس بعام كان محمد بن عبدالله قد تولى سلطانا للمغرب (١١٧١ — ١٢٠٤هـ/ ١٧٥٧ — ١٧٩٠م) . وفي عهده بدأت البلاد تنتعش من جديد ، وفي الواقع فقد مرت فترة كانت فيها للحكم سطوة ، وللنظام مكانة وللحياة الاقتصادية تقدم . هذه الفترة التي شغلتها حياة ابي القاسم الزياني ، والتي امتدت عبر السلاطين (بعد محمد بن عبدالله) يزيد بن محمد (١٢٠٤ — ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٠ — ١٧٩٢م) وهشام ابن محمد (١٢٠٦ — ١٢٠٧هـ/١٧٩٢ — ١٧٩٣م) وسليمان بن محمد (١٢٠٧ — ١٢٣٨هـ/ ١٧٩٣ — ١٨٢٢م) وعبدالرحمن (١٢٣٨ — ١٢٧٦هـ/١٨٢٢ — ١٨٥٩م) .

يقول ابو القاسم : «لما استرحنا من السفر ، بعد العودة الى فاس ، عدت للقراءة كما كنت ، ولما سألنا عمن كنا نألفه من الطلبة في القراءة والانس ، وجدنا أكثرهم تعلق بخدمة السلطان سيدي محمد لما بويع ... فلما بلغني خبر رفيقي سعيد الجزولي وغيره شرهت نفسي للحاق بهم وتعلقت همتي بخدمة السلطان» . وكان والده معارضا لذلك ، لأنه كان يخشى ان يصيب ابنه ما يصيب الناس في بلاطات الملوك اذ يرتفعون ويهبطون ويسرون ويألمون ويفرحون ويترحون ويسجنون وتصادر املاكهم . لكن ابا القاسم لم يقبل نصيحة والده ، واصبح كاتبا في بلاط محمد بن عبدالله . وقد اصابه ما خشي منه والده . فبعد عشر سنوات طرد من الخدمة وظل مهددا بالقتل . لكن السلطان عرضت له مشكلة فيما بعد ، فلم يجد من يحلها له سوى الزياني ، فاعاده الى ما كان عليه وزاد في اكرامه . وكلفه القيام بمهمات كبيرة ، اداها جميعا بنجاح كبير .

وفي سنة ١٢٠٠هـ / ١٧٨٦م وجهه سلطان المغرب سفيرا عنه الى الخليفة العثماني عبدالحميد الاول (١١٨٧ — ١٢٠٣هـ/١٧٧٤ — ١٧٨٩م) ، فكان خير سفير يمكن ان يكلف بمثل هذه المهمة .

كانت رحلة ابي القاسم الاولى رحلة والده . ولذلك فان المؤلف لم يدون الكثير عنها في الترجمانة الكبرى . اما في هذه المرة فقد كانت رحلته هو . ومن ثم فانه يفصل امورا كثيرة . وتشغل رحلته هذه مساحة جيدة من الترجمانة .

ولم يكد ابو القاسم يستقر في البلاط بعد عودته من الاصطنبول (كما يرسم الاسم) حتى يتوفى محمد بن عبدالله (١٢٠٤هـ/١٧٩٠م) ويتولى الحكم ابنه اليزيد ، الذي كان يمقت الزياني ، فزجه في السجن وصادر املاكه ،

ورضي عنه ثم اعاده الى السجن وعذبه. فلما توفي اليزيد اخرجه أهل الرباط من سجنه، فقصد فاس وحضر بيعة سليمان (١٢٠٧هـ/١٧٩٣م) الذي يعرف للزياني مقامه وخبرته وتجاربه ومقدرته. فارغمه على ان يتولى العمل في «اوجده»، في شرق المغرب. وخرج الى مقر عمله مرغما، ومعه ركب التجار الذي كان محصورا بفاس، فخرج عليهم العرب فقتلوا من قتلوا ونهبوا الاموال والمتاع. فانسل ابو القاسم «فارا بجلده سائما من الخدمة السلطانية» وتوجه الى وهران ثم الى تلمسان فأقام «في العباد سنة ونصف السنة مشتغلا بالمطالعة والتقييد والتأليف، واطلع هناك على غرائب كتب التاريخ التي تعد اليوم في حكم المفقودة».

وفي سنة ١٢٠٨هـ / ١٧٩٤م زار الاستانة والمشرق، بما في ذلك اداء فريضة الحج، وعاد الى فاس، فاستقبله السلطان سليمان وولاه تفتيش مراسي المغرب ومراقبة عمالها. ثم اتخذه كاتبا ووزيرا وحاجبا. وبعد احد عشر عاما نكبه السلطان نفسه وانزله عن ولاياته. وانصرف بعد ذلك الى الكتابة والتأليف حتى وفاته سنة ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م.

اكتفينا بالترجمة الموجزة لأبي القاسم، لأننا نريد ان نسير معه في رحلاته، خاصة الثانية والثالثة، لنطلع على ملاحظاته عن الاشخاص الذين قابلهم والاشياء التي شاهدها والآراء التي يبثها في تضاعيف رواياته.

لما سفر الزياني لملك المغرب محمد ابن عبدالله الى الخليفة العثماني عبدالحميد الاول، لقي الكثير من العناية والتقدير والاحترام، لانه كان رسول سلطان الى سلطان. وقد اكرمه كبار الموظفين واحدا واحدا، وهذا كان تدبير الأمور في استانبول.

لكن الذي ترك في نفس الزياني اثرا كبيرا هو الزيارة التي خص بها. يقول الزياني: «ومن جملة اكرامه، أي السلطان، لنا أمر الأغا الذي نزلنا عنده، وهو المكلف بامرنا، والقائم بضرورياتنا، ان يتوجه بنا للوقوف على جميع الاماكن المعتبرة عندهم بالاصطنبول، كبيت المال ودار الضرب التي تخدم فيها سكة الذهب والفضة؛ ودار الصنعة التي تفرّغ فيها المدافع والمهاريز. ودار القز التي يخدم فيها الوشي والديباج والطرز والالوية والستور لدار المملكة. ودار الزجاج التي يخدم فيها الزجاج والبلور؛ والطرسانة التي تنشأ فيها المراكب القرصانية السلطانية ومرسى مراكب السلطان الجهادية؛ ودار الهندسة التي يتعلم فيها علم الهندسة والحساب والتنجيم، ودار الكاغد التي يصنع بها اجناس الورق وانواعه؛ واوقفونا بها على دار مصنوعة كلها من الكاغد، حيطانها وسقفها وقرمودها وزليجها ودفعها، أي أبوابها، وفرشها وجميع آلاتها حتى آلات المطبخ الا الماء. ودار العدة زرناها، وهي التي تصنع بها آلة الحرب؛ ودار النيشان التي يتعلمون بها رماية المدافع والمهاريز، ويرمون على الشارة. وكل من صادفها يقبض عددا معينا .... وفي كل يوم نركب ويتوجه بنا لمحل من هذه الاماكن.

ومما اهتم به الزياني في استانبول هو مراتب ومرتبات العلماء. ويقول انه يقوم على رأس العلماء شيخ الاسلام، وهو بمنزلة الوزير، وتوليته وعزله بيد السلطان. ولشيخ الاسلام في كل سنة من بيت المال، هذا فضلا عن معاشه المقرر له، الفان وسبعمائة من القروش، سواء اكان مولّى ام معزولا. ويلي شيخ الاسلام في الرتبة والمرتبة قاضي عسكر الاناضول ومرتبه الفان من القروش. وهكذا تتوالى المناصب تدرُّجا نحو الأقل أهمية منها، بحيث يصل الى قاض الى واحد من البلدان التالية: اسكدار وسلطان ايوب (منطقة جامع ايوب الانصاري) والقدس الشريف وحلب الشهباء ويكي (يني شهر) وسلانيك وغلطة (في استانبول) وازمير. ولم يذكر ابو القاسم مرتبات هؤلاء الموظفين، ولكن لا بد انها كانت تقارب ٤٠٠ أو ٣٠٠ قرش. لأن قضاة بعض المدن العثمانية، والتي يأتي ذكرها قبل هذه مباشرة، كان مرتبها ٤٠٠ قرش.

وينقل الزياني انه لا يكون أحد مدرِّسا حتى يلازم القراءة بهذه المراتب كلها من أدناها الى اعلاها، يقطعها في سبعة أعوام، فاذا كان من المبرزين يسرح له شيخ الاسلام في احدى المدارس الصغرى، بعد ان يكون قد حصل على علم وطلب الامتحان ودخل التمييز واختبره المميزون من جملة من يختبرون. وفي كل سنة ينتقل لمدرسة فوقها، الى تمام سبع مراتب هي المنتهى.

كانت المراسم تقضي بان يستقبل السلطان الوفود والممثلين اما يوم الديوان أو يوم العيد. الا ان الامر تبدل بالنسبة للزياني. فقد اعلنت الروسيا الحرب على تركية. وكانت تركية بحاجة الى مال. وبهذه المناسبة اجتمع الزياني بالوزير لكي يتعرف الى احتمال ان يقرض سلطان المغرب مالا للسلطان التركي. وانتهى الأمر بان بدل السلطان المراسم، واستقبل السفير المغربي خارج المواعيد الرسمية. يصف الزياني الترتيبات خطوة خطوة، الى ان وقف الزياني، بالثياب الرسمية لمثل هذه المناسبة؛ وعرض الزياني على السلطان ان سلطان المغرب لا يقرض استانبول ولكن يتبرع، لأنه يرى ذلك من واجبه. ولولا بعد الشقة لقاد جيشا بنفسه لقتال «الموسكو».

هذه بعض ما شاهده الزياني بوصفه سفيرا لسلطان المغرب. لكن زيارة الزياني الثانية لاستانبول ١٢٠٦هـ كانت خاصة. لكنها جاءت بعد الزيارة الرسمية بمدة قصيرة، فلم يكد الزياني يُنسى فمثلا لما عرف المسؤولون برغبة الزياني في الحج، قيل له انه سيكون ضيف السلطان ولن يتكلف شيئا.

وهنا هو رد الفعل عند الزياني. قال: «ولما سمعت منه، أي المسؤول عن الرحلة الى الحجاز، ما قال في شأن السفر ان لا تتكلف بشيء وأكون معه، يدي بيده، لم استحسن ذلك. وتكلمت ليلا مع الأغا، المسؤول عن راحة

الزياني، وذكرت له مقالته وما سمعته منه، واني لا استعمل ذلك. لأني بخدامي وعبيدي ومضاربي، فلا اكلفه الا بالاحسان والمباشرة فيما اتوقف عليه، وأكون في محلي وحدي، ولا يمكنني الكون معه. ولا يلتئم طبع العرب مع الترك في كل أمر. لأننا أهل المغرب أهل بادية وقسوة وجفوة، ولا نأكل ما يأكله الاتراك من الرقيق واللبن. ولا بد لنا من الكسكس واللحم وما تعودناه من الخشين. ولعل ما معنا من الكسكس والخليع والسمن يكفينا الطريق؛ والسفر تتبدل فيه الطباع. فنحب ان يكون نظره علينا في اماكن الزحام على الماء، وفي المخاوف، والاعانة بالدواب للحمل والركوب، لأننا لا نعرف قوانين الكراء ولا الشراء».

وأدى الزياني فريضة الحج، وزار مصر. وهذه الزيارة كانت زيارته لا زيارة ابيه. وكان الى جانب بيته بيت الشيخ عبدالرحمن الجبرتي، الذي اجتمع به أكثر من مرة. والجبرتي هو مؤرخ مصر في العقد الأخير من القرن الثامن عشر والعقد الأول من القرن التاسع عشر. ويقول الزياني: «وكنت ادخل مع الشيخ عبدالرحمن الى خزانة الكتب بمسجد محمد باي ابو الذهب، بما في فيها من غريب الكتب، وخصوصا كتب التاريخ. وكنت اطالع بها اولا، ثم تمكنت الصحبة مع قيّمها، فكان يعيرني ما اطلب من الكتب. فطالعت تاريخ الكرماني وتاريخ النووي وتاريخ الخلفاء للسيوطي والورقات له والخطط للمقريزي وبحر الانساب لشيخ المرتضى، الزبيدي».

واجتمع الزياني بالشيخ اسماعيل العباسي. وهو من نسل بني العبـاس (سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م). وقد كان الشيخ اسماعيل من شيوخ الطب في مصر. «وقد تقبلني في مقعده من المارستان الكبير» يقول الزياني. والمارستان الكبير هو المارستان المنصوري الذي ظل العمل مستمرا فيه منذ أيام قلاوون. وذكر الزياني انه استمر على الاجتماع بالشيخ العباسي والافادة من معرفته.

ويصف الزياني خروج المحمل استعدادا للسفر لقضاء الحج. وهناك خروجان: الاول في منتصف شوال، وهو للاعلان والاعداد، ويليه الاستعداد التام من شراء الابل أو اكترائها وشراء المؤن من الفول وما اليه. ثم يأتي الخروج الثاني وهو في الاسبوع الأخير من شهر شوال. وهنا يبدأ فعلا سير المحمل في اتجاه الحجاز.

وادى الزياني فريضة الحج، وذكر طريق الحجاج ومراحله واحدة واحدة مع الوصف الدقيق. وكان ممن لقيه في مكة أحمد باشا الجزار والي عكا. وقد حاول هذا اجتذاب الزياني وأخذه الى عكا، لكن الزياني افلت منه.

وزار الزياني القدس ووصف المسجد الاقصى وقبة الصخرة. ثم انتهى به الأمر الى دمشق. وبعد ان ذكر طرفة من تاريخ دمشق، ذكر من لقيهم فيها من العلماء، وفي مقدمتهم الشيخ سعيد الحنفي وهو حفيد الشيخ عبدالغني النابلسي الصوفي الدمشقي المشهور. ولقي بدمشق الغزي، وكان له بيت كبير (أي غرفة) بالمسجد يقعد فيه بقصد المطالعة والافتاء.

وذهب بعد ذلك الى انطاكية. والزياني حريص على تدوين أحداث طفيفة هي في الواقع مما يجعل كتابه طريفا. وها نحن اولاء ننقل واحدة منها. قال: «توجهنا لمدينة انطاكية. ولما بلغتها قدم للسلام علي الفقيه النبيه المؤرخ الوجيه مفتي الحنفية الشيخ اسماعيل الجزاعي ... وكان اعجوبة في الأدب والتاريخ يحسن اللسان العربي. فدخل في اثره رجل من أهل بلده فكلمه بالتركي، والمفتي يضحك. والتفت الي وقال «يا شيخ هذا رجل اختل من عقله. جاءني اشفع له في حق واجب عليه لقاضي البلد. وذلك ان رجلا كان يتنازع وسجنه القاضي الى ان دفع له ما وجب له في الارث. ولما تمكن من حقه طالبه القاضي بالعشر فلم يقبل. وهذا شيء لازم متعين لا يترك لاحد، الا من كان له يد أو شفيع مجبر. ولما رأى ذلك اراد ان تأخذ بيده، ربما يستحيي منك القاضي». فقلت له ومن اين انا ومن اين اعرف القاضي، حتى اشفع عنده! فقال لي لما نزلت هاهنا بلغه خبرك واثنى عليك خيرا. وقال «ان خدام مولاي محمد ملك المغرب كلهم اولياء . فقلت له لا سبيل لهذا ولا اسعى فيه». ويعلق الزياني على القصة بقوله: «فانظر لهذا العجب! وهذه عادة قضاة المشرق كلهم، نسأل الله السلامة والعافية من هذه الورطة التي وقعوا فيها. فقد عمت البلوى هذه الدولة العثمانية في القسطنطينية وبلاد الترك كلها ومصر والشام والعراق!.

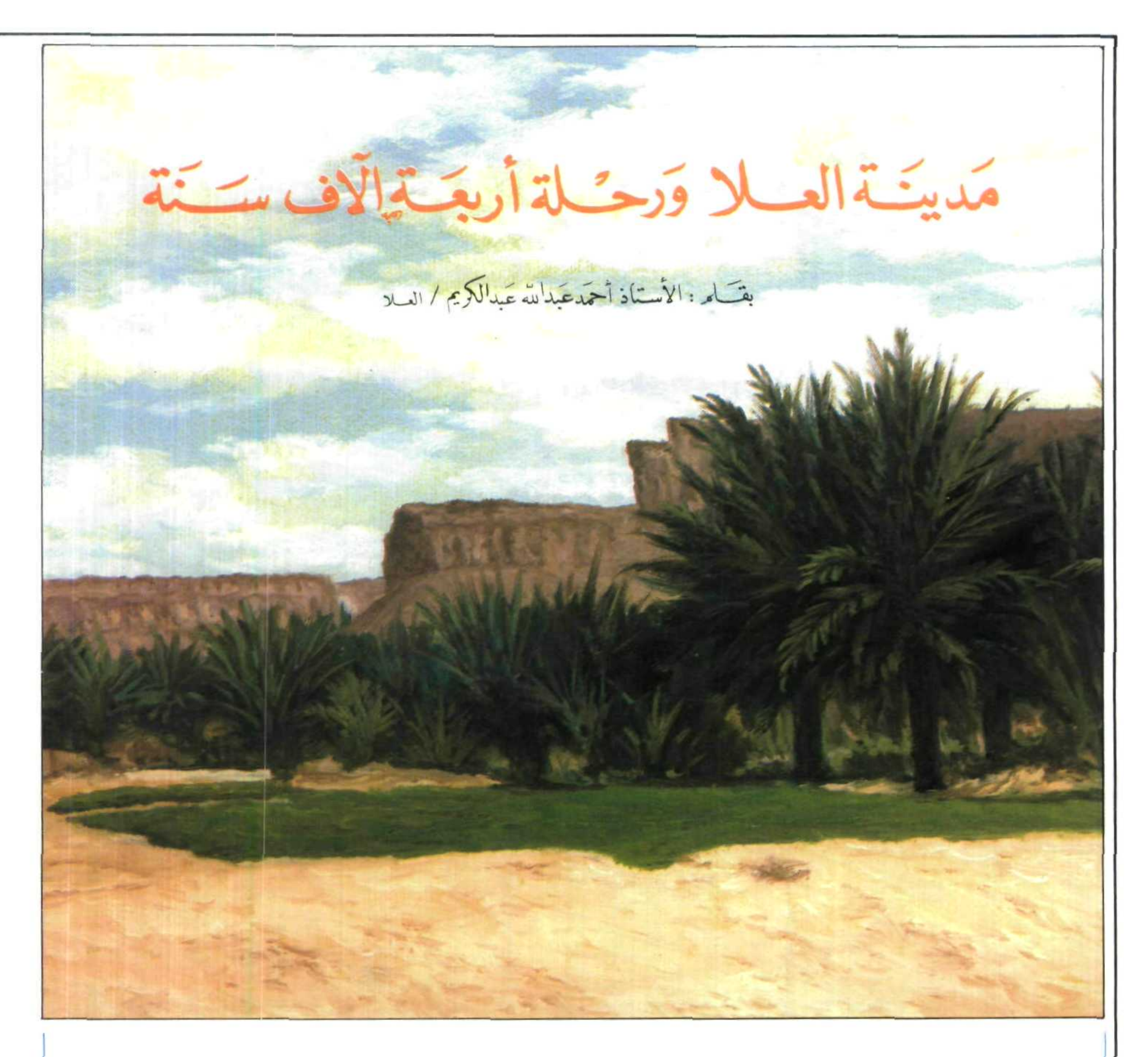
ودخل ازمير ومعه غرائر طعام أي كسكس وقد دفنت فيها اكياس فيها نقود ذهبية، لكن صاحب الجمرك لم يطلب منه دفع أي غرامة، لما عرف انه من خدام ملك المغرب.

ولعل من اطرف ما مـر بالزياني في رحلته هذه وصوله مع المسافرين والحجاج الى تونس بحرا اذ كان قادما من تركيا. ولما وصلوا فرضت عليهم «الكرنطينة» التي يصفها الزياني بقوله «الكرنطينة الشنعا الممنوعة عرفا وشرعا». ذلك بان المركب الذي جاءوا فيه كان قد جاء من بلد موبوء. ونحن نرى ان ترتيب الحجر الصحي في ذلك الوقت كان تدبيرا مهما. لكن الزياني يقول: «... ومن المقدر المحتوم والسابق المرسوم كانت لنا جارية انتخبناها على المراد والوفق، عزمت على الوضع. فجاءها الطلق في الليلة القابلة (للوصول) فكنت أنا القابلة. وسهل الله امرها عن قريب، وان الله مع كل غريب، فوضعت ولدا ذكرا، ليلة الاثنين سحرا فسميته عبدالسلام، وزال ما كنا فيه من الغم والسأم.»

وعاد الزياني الى بلده، واراده عبدالرحمن على العمل معه، فاعتذر، وانصرف الى التأليف. وللزياني خمسة عشر كتابا في التاريخ اصلا والفقه والجغرافية. لكن اطرف كتبه الترجمانة الكبرى، التي هي موسوعة مفيدة طريفة. معلومات كثيرة فيها، كما قلنا قبلا، منقولة. لكن الترجمانة تدور حول محور واحد هو ابو القاسم الزياني، رحمه الله □

مَدينَة العلا ورحلة أربعة آلاف سَنَة

بقلم : الأستاذ أحمد عبدالله عبدالكريم / العلا



هَذا ما تشيرُ اليه المصَادر . وهَذا ما تؤكده الوقائع التاريخية من أن العلا،
وَمن قبل أربعة آلاف سَنة ، قد شهدت استقرار الانسان على أرضها وهو يمارس
مختلف ألوان النشاط البشري . يشهد بذلك موروثاته الحية التي قاومت كل
العوامل التي يمكن أن تطمس معالمها ، على طول مشوار الرحلة . وعلى
اختلاف عناصر الاستقرار البشري . إنها مدينة ذات مدنية وذات
تاريخ منذ أكثر من أربعة آلاف سَنة .

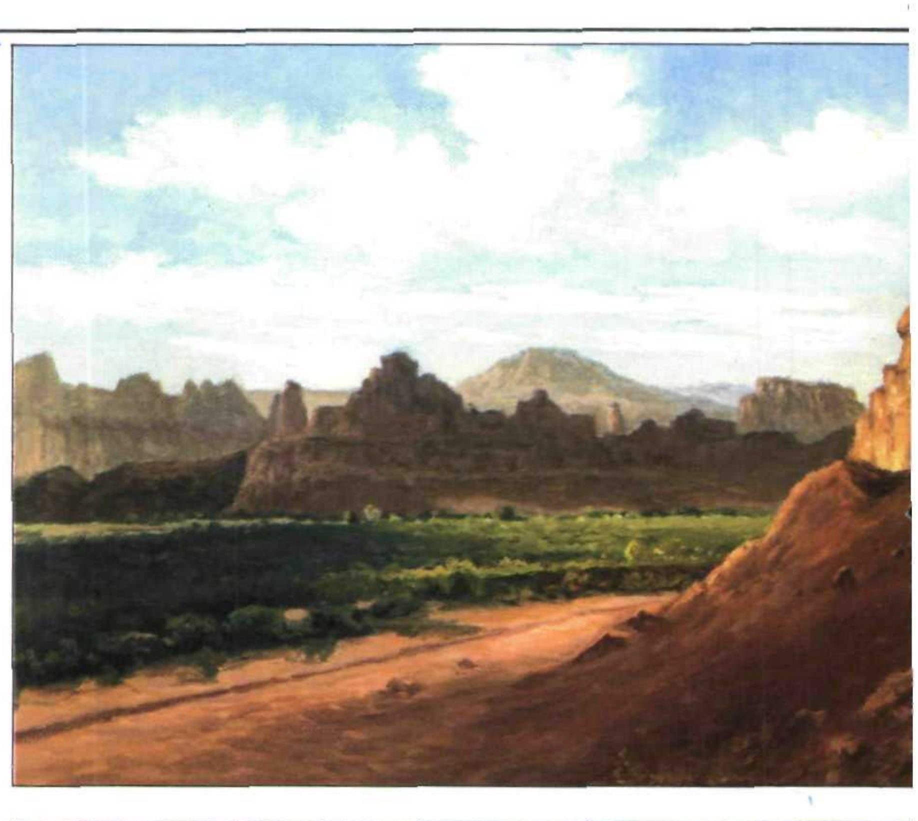
الموقـع واسـتراتيجيـته

تقع مدينة العلا في المنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية شمالي المدينة المنورة بنحو ٣٧٠ كيلومترا بقرب خط الطول ٣٧,٤٦° شرقا ودائرة خط العرض ٢٧,٣٠° شمالا ويمر بها الخط الحديدي الحجازي الذي أنشأته الدولة العثمانية في آخر عهدها ليصل المدينة المنورة بالشام .

والعلا وادٍ يحده جبلان مرتفعان يمتدان من الشمال الى الجنوب وهما متصلان الا من التلاع التي تتخللهما كمساقط لمياه الأمطار وجريانها . ويبلغ طوله عشرين كيلومترا وعرضه خمسة كيلومترات في أقصى اتساعه وكيلومترين ونصف الكيلومتر في أقصى مضيق له . ويرتفع عن سطح البحر بنحو ٧٥٠ متراً وجوه معتدل نسبيا في الصيف وفي الشتاء . وجباله حمر هشة « رملية » يسهل قطعها ونحتها وتشكيلها والكتابة عليها .. ولهذا قد وجدت فيها الرياح وعوامل المناخ الأخرى مجالا خصبا لصنع أشكال عجيبة في أعاليها وفي صخورها المنفردة : كأشكال الآدميين ورؤوس الحيوانات والقدور والصواني الى غير تلك من التشكيلات التي يقف الانسان أمامها مشدوها ومندهشا . والى جانب تلك المشاهد الفنية ، هناك الغيران « جمع غار » الفسيحة التي يأوي اليها الناس في الصيف يستمتعون بظلها الوارف البارد على بساط من الرمال النقية . ومياهها غزيرة وفيرة وتربتها خصبة معطاءة . ولهذه العوامل ، فهي حمى ممتاز وحصن منيع تتوفر فيه مقومات الحياة : الماء والأمن من الأخطار إذ فيه يمكن اتخاذ وسائل الحماية والدفاع للاحتماء ودرء الأخطار بيسر وسهولة .. ولهذه الأسباب كلها أراها كانت معبرا رئيسيا لقوافل التجارة منذ العهد القديم بين جنوب الجزيرة وبلاد الشام ، وللأسباب ذاتها ولموقعها على طريق التجارة قد اجتذبت السكان وحبذت إليهم الاستقرار فيها وممارسة النشاط البشري على أرضها واستغلال طبيعتها في صنع المدنيات وتكوين الحضارات مما نشهده اليوم ونلمس آثاره . وسألمح اليه بشيء من العرض في السطور التالية .

استقرار بشري عمره أربعة آلاف سنة

تلك الصفات الجغرافية والميزات الطبيعية لأرض العلا وموقعها الاستراتيجي عوامل تدفع الانسان لاتخاذها مقرا له وميداناً لحياته وممارسة نشاطاته في دعة وسلام خصوصاً في ذلك الزمن البعيد من تاريخ الانسان .



١



٢

١ ــ منظر لجانب من مدينة العلا وقت الغروب .

٢ ــ حي حديث ويبدو فيه مبنى المحكمة الشرعية وسوق الخضار .

يحدثنا التاريخ أن الثموديين وقد خرجوا من جنوب الجزيرة (اليمن) انتشروا في أنحاء شتى من الجزيرة العربية واتخذوا لهم مواطن استقرار على الطرق التجارية في اكثر من موضع .. هؤلاء الثموديون وكما تشير اليه المصادر استنادا الى آثارهم التي عثر عليها الباحثون وأماط عنها اللثام المنقبون ، يعود وجودهم الى الألف الثالثة قبل الميلاد . والثموديون ينتمون الى قبيلة ثمود وهي قبيلة عربية كبيرة وبطونها كثيرة .. وقد استقر المقام بأحد بطونها في الحجر « مدائن صالح » والعلا . والحجر ضاحية من ضواحي العلا تبعد عنها بعشرين كيلومترا شمالا .

وقد بلغ ثمود الحجر في حياتهم درجة عالية من الازدهار الاقتصادي والاستقرار المعيشي بعيدا عن التأثر بالتقلبات الاقتصادية والاخطار التي تهدد أمن النفوس وطمأنينتها حتى نجدهم قد عمروا الأرض بالقصور ونحتوا الجبال بيوتا كما أشار القرآن الكريم الى ذلك في سورة الاعراف قال تعالى : ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوّأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين** ﴾ (الآية ٧٤) . وأنشأوا الجنات والعيون والزروع والنخيل كما أشارت اليه سورة الشعراء في قوله تعالى : ﴿ **أتتركون في ما ههنا آمنين . في جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين** ﴾ (الآيات من ١٤٦ ــ ١٤٩) .

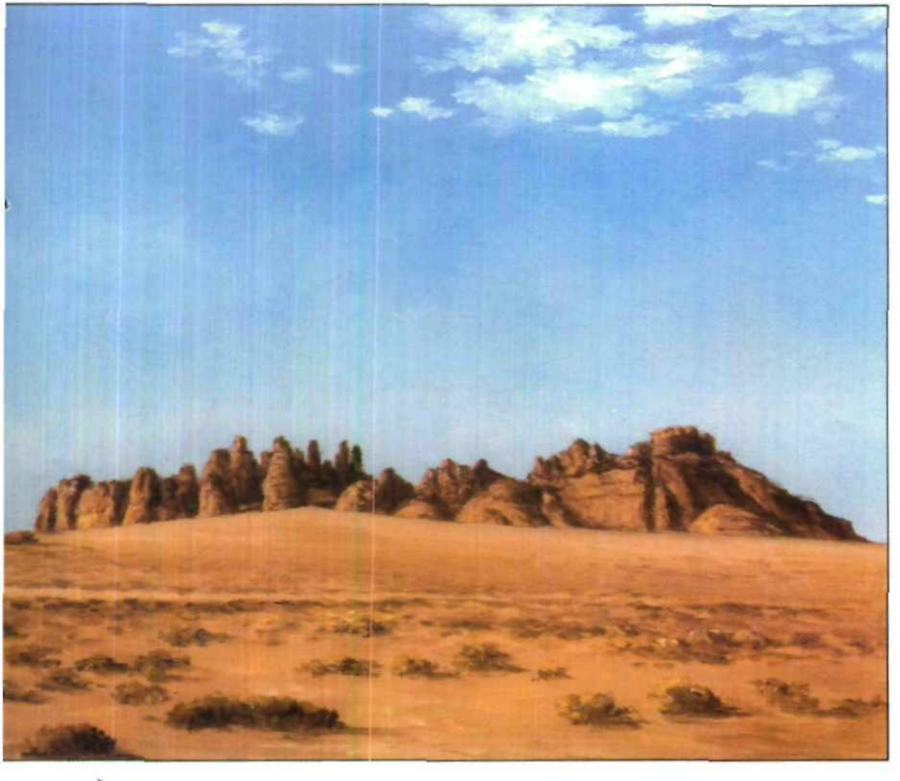
ومع هذا العيش الوارف والأمن الدائم الذي يتمتع به ثمود الحجر كانوا قوما وثنيين يعبدون الآلهة من دون الله ولذلك بعث الله سبحانه وتعالى فيهم أخاهم صالحاً يذكّرهم بنعم الله عليهم ويدعوهم الى توحيده وإفراده بالعبادة ، غير انهم عصوا رسول الله صالحاً عليه السلام فأهلكهم الله بالصيحة التي أبادتهم جميعا ولم ينج الا صالح ومن آمن معه حيث تركوا الحجر وهاجروا الى موطن آخر قيل الى فلسطين وقيل الى حضرموت .

ولم يكن ثمود الحجر يقتصرون في نشاطهم العمراني والزراعي على الحجر فقط وانما امتد نشاطهم في ذلك الى العلا . يوحي بذلك ما يروى عن معاوية بن ابي سفيان لما مر بوادي القرى تلا قوله تعالى : ﴿ **أتتركون في ما ههنا آمنين . في جنات وعيون . ونخل** .. ﴾ الآية ، قال : هذه الآية نزلت في أهل هذه البلدة وهي بلاد ثمود فأين العيون ؟ فقال له رجل : صدق الله في قوله أتحب ان أستخرج العيون ؟ قال : نعم . فاستخرج ثمانين عينا .. فقال معاوية : الله أصدق من معاوية[١] .

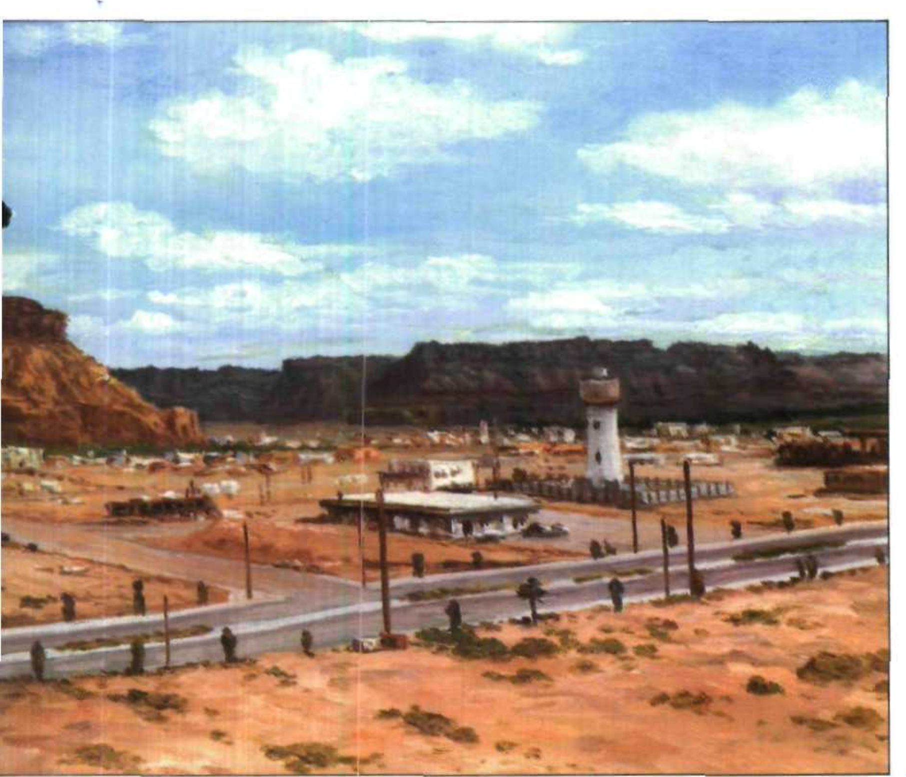
١ ــ منظر لجبال الأثالب في الحجر (مدائن صالح) ويقال ان مقبرة الثموديين فيها .

٢ ــ أحد الأحياء الحديثة ويبدو فيها خزان المياه .

١



٢



والذي نشاهده اليوم أن أرض **العلا** هي التي تحوي هذا العدد الكبير من العيون فيما أرض الحجر لم يعثر فيها على عين واحدة وانما تعتمد الزراعة فيها والشرب على الآبار الارتوازية المحفورة .. ومن هنا يمكن الاستدلال على أن العلا كانت ميدانا لنشاط الثموديين ومن هنا أيضا ندرك ان العلا قد شهدت استقرارا بشريا وحياة حضرية منذ عهد الثموديين إبان وجودهم في غضون الألف الثالثة قبل الميلاد [٢] .

العلا قاعدة لمملكتين

وبحلول القرن السادس قبل الميلاد يروي التاريخ لأول مرة ان العلا كانت قاعدة لمملكتين وموطنا لحضارتين ازدهرتا فيها واحدة تلو الاخرى مخلفة لنا كلتاهما ما يشهد بذلك ويدعم وجودهما بالعلا في ذلك الزمن السحيق من التاريخ .

مملكة ديدان

وأولى المملكتين التي استطاع علماء الآثار أن يتبينوا وجودها ويثبتوا قيامها في العلا هي مملكة « ديدان » التي يعود الفضل في اكتشافها الى العالم الالماني « جريمي » الذي لاحظ في الكتابات التي عثر عليها في منطقة العلا منقوشة على الصخور ان كلمة « ددن » تسبقها كلمة ملك . وقد حدد زمن قيام هذه الدولة وانتهائها من بداية القرن السادس قبل الميلاد حتى نهايته [٣] ، حيث زال نفوذها باحتلال اللحيانيين واكتساحهم لها .

مملكة لحيان

وبنهاية القرن السادس وحلول القرن الخامس قبل الميلاد وصل الى العلا الشعب اللحياني الذي ابتلع المملكة الديدانية وأقام على أنقاضها مملكته التي عرفت بمملكة لحيان حيث عمرت اكثر من سالفتها واتسع نفوذها وترامت اطرافها .. ففي حين ان مملكة « ديدان » لم يعرف العلماء لها حدودا اكثر من العلا ، نجد المملكة اللحيانية تصل الى خليج العقبة وتتوغل في وسط الجزيرة ويمتد عهدها الى ثلاثة قرون من بداية القرن الخامس الى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد [٤] . وتخلف لنا هذه المملكة آثاراً أغنى من سابقتها الا ان المصير المحتوم بزوالها قد وافاها على أيدي دولة معين .

العلا .. تحت السيطرة المعينية

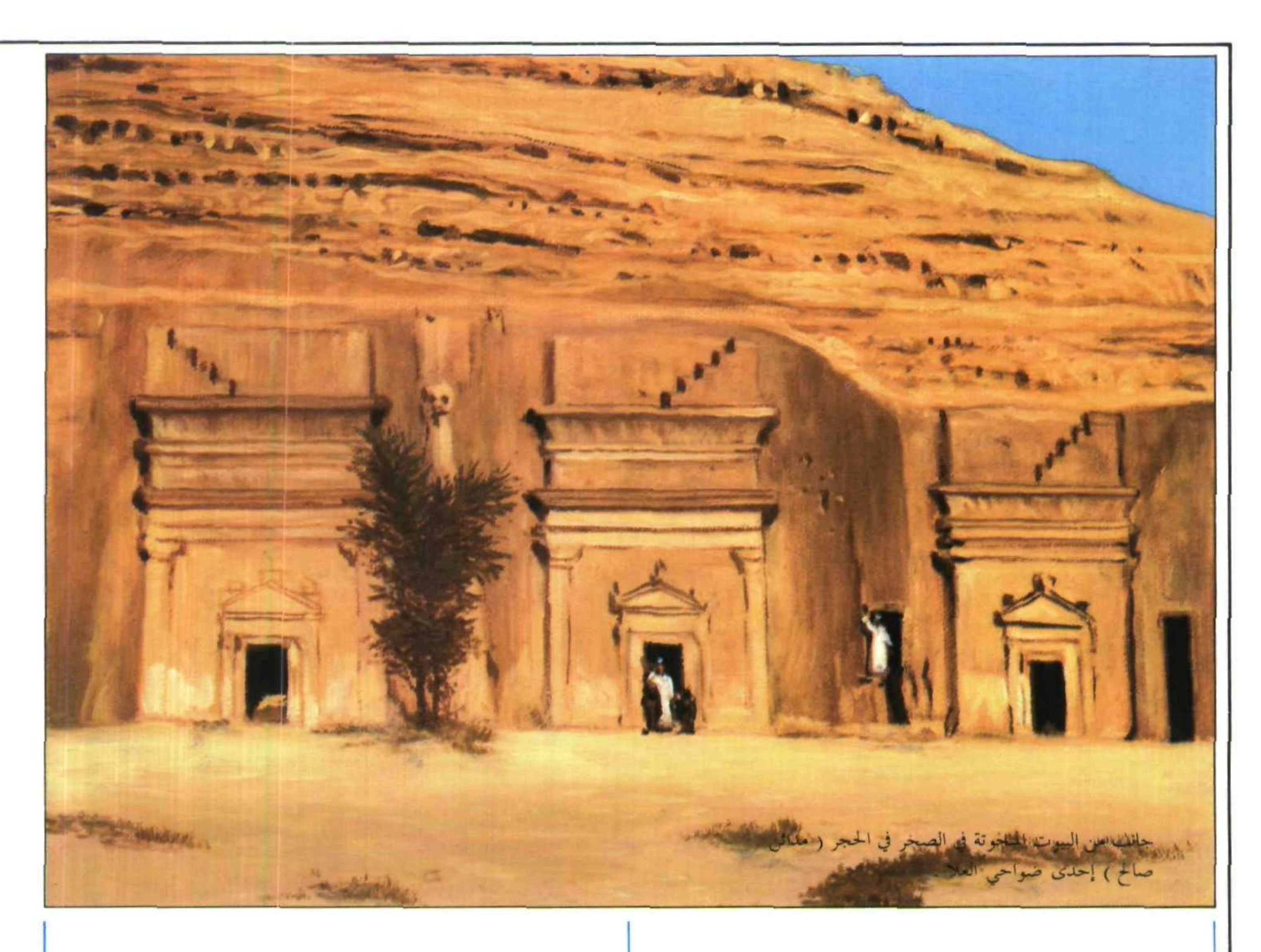
ولما كانت الدولة المعينية في جنوب الجزيرة ذات نفوذ واسع وتجارة رائجة رابحة مع بلاد الشام ومصر .. وكانت تجارتها هذه يتهددها الخطر من قبل الشعوب القاطنة على الطرق التجارية « أراد المعينيون حماية تجارتهم وتأمين سبلها وكنتيجة لذلك استولوا على العلا وأزاحوا مملكة لحيان وأزاحوا نفوذها وبذلك دخلت العلا تحت نفوذ الدولة المعينية التي استمرت زهاء قرنين من الزمان [٥] ، كانت العلا خلالها مركزا تجارياً لها . ولكن لما كان النبطيون يناورون في هذه المنطقة بغية الاستيلاء على هذا الموقع الاستراتيجي الهام فانهم لما قويت شوكتهم واتسع نفوذهم خلال القرن الثاني قبل الميلاد ، استطاعوا أن يصلوا الى الحجر والعلا .

الأنباط في العلا

وخلال القرن الثاني قبل الميلاد بدأ النبطيون يتوسعون على طول الساحل الشرقي للبحر الأحمر إثر انحسار الدولة البطلمية في مصر ، والتي بدأت تفقد اهتمامها بذلك الساحل نتيجة لضعفها واضمحلالها وبالتالي فقد المعينيون في العلا دعم حلفائهم البطالمة لهم مما جعلهم عاجزين عن مواجهة المد النبطي .. وبذلك استولى الأنباط على الحجر والعلا وجعلوها قاعدة للانطلاق والتوسع . وهكذا أصبحت منطقة العلا منطقة نشاط ونفوذ نبطي الى ان أخذت دولتهم تتقوض سياسيا واقتصاديا في عهد آخر ملوكها « رابيل الثاني » حيث رأى الأمبراطور الروماني « تراجانوس » ضرورة إنهاء وجود دولة مستقلة لهم وذلك في عام ١٠٦ ميلادية . وبذلك تحولت بلادهم ومناطق نفوذهم الى ولاية رومانية [٦] .

العلا .. في العصر الجاهلي

بعد خروج الأنباط من العلا لتكون ضمن الولايات التابعة للدولة الرومانية في أوائل القرن الثاني الميلادي ، تشح المعلومات التاريخية عنها في تلك الحقبة الا من اشارات عابرة تستمدها من المصادر تفيدنا ان اليهود وبعد ان هدم « بختنصر » بيت المقدس وسبى من سبى وأجلى من أجلى ، نزلت طائفة منهم بوادي القرى « العــلا » واشتغلوا بالزراعة . كما تفيدنا المصادر بقيام مدينة في هذه الفترة في العلا كانت لها شهرة حضارية وأهمية اقتصادية . وهذه هي مدينة « قُرْح » بضم القاف وإسكان الراء كما يشار اليها في كتب المؤرخين . هذا بالاضافة الى ان العلا في أواخر العصر الجاهلي ومنذ بداية العهد الاسلامي وحتى نهاية القرن السادس منه أطلق عليها اسم وادي القرى فكان لها علما وبه تشتهر ..



جانب من البيوت المنحوتة في الصخر في الحجر (مدائن صالح) إحدى ضواحي العلا

ولنستمع الى أقوال المؤرخين ومحققي المواضع فيما أشرت اليه آنفاً .

يقول البلاذري في فتوح البلدان « لما هدم (بختنصر) بيت المقدس وأجلى من أجلى وسبى من سبى من بني اسرائيل لحق قوم منهم بناحية الحجاز فنزلوا وادي القرى وتيماء ويثرب » [٧] .

وقال ياقوت الحموي في معجم البلدان « قرح بالضم ثم السكون هو سوق وادي القرى . وكانت من أسواق العرب في الجاهلية ، قال السدى : قرح سوق وادي القرى وقصبتها ، وانشد لبعض بني أسد من اللصوص : [٨] .

لقـــد علمـت ذود الكلابـي أنـني
لهـــن بأجـــواز الغـلاة مهـــين
تتابعـــن في الأقـــران حتى حبســـتها
بقُـــرْح وقـــد ألقـــين كل جنـــين

وقال عبدالله بن رواحـة : [٩]

جلبنـــا الخيــــل من آجـــام قَــرْح
يفـــــر من الحشيـش لهـــا العكـــوم

وقال ياقوت أيضاً في معجمه عن دارة قرح : دارة قرح : بوادي القرى ، وأنشد عمرو : [١٠] .

حبســن في قـــرح وفي داراتهـــــا
ســـبع ليــــال غــير معلوماتهـــا

وقرح هو الوادي الذي هلك فيه قوم عاد قرب وادي القرى (حـ٢ ، ص ٤٢٩ — ياقوت) .

وأورد ابن جرير في تفسير سورة الأعراف عن ابن اسحاق — في الكلام على قوم ثمود : وكانت منازلهم في الحجر الى قرح وهو وادي القرى [١١] .

وقال السمهودي في « وفاء الوفاء » : قرح : سوق وادي القرى يضاف اليه صعيد قرح ، وكان به سوق في الجاهلية [١٢] .

وقال الفيروز أبادي في المغانم المطابة « قرح : اسم لسوق وادي القرى وقصبتها وكانت من اسواق العرب في الجاهلية » [١٣] .

وقد وصف المقدس بلدة قرح في كتابه « أحسن التقاسيم » حيث قال :

« وناحية قرح تسمى وادي القرى وليس بالحجاز اليوم بلد اجل وأعمر وآهل وأكثر تجارة وأموالا وخيرات ــ بعد مكة ــ من هذه ... الخ » ثم يقول : وهو بلد شامي مصري عراقي حجازي . والغالب عليها اليهود »[١٤] .

ويستنتج العلامة الشيخ حمد الجاسر : ان بلدة قرح جزء من العلا تشمل القسم الشمالي منها وقد شملها الآن اسم العلا[١٥] .

ويبدو ان العلا قبيل العهد الاسلامي تسمت باسم وادي القرن وغلب عليها هذا الاسم الى ان اصبحت تشتهر به حتى نهاية القرن السادس الهجري وذلك مما نلحظه في كتب المؤرخين من استعمالهم لهذا الاسم دون سواه في الحديث عن العلا في تلك الفترة وشاهد ذلك ما مر من أقوال المؤرخين آنفاً .

العلا .. في ظل الاسلام

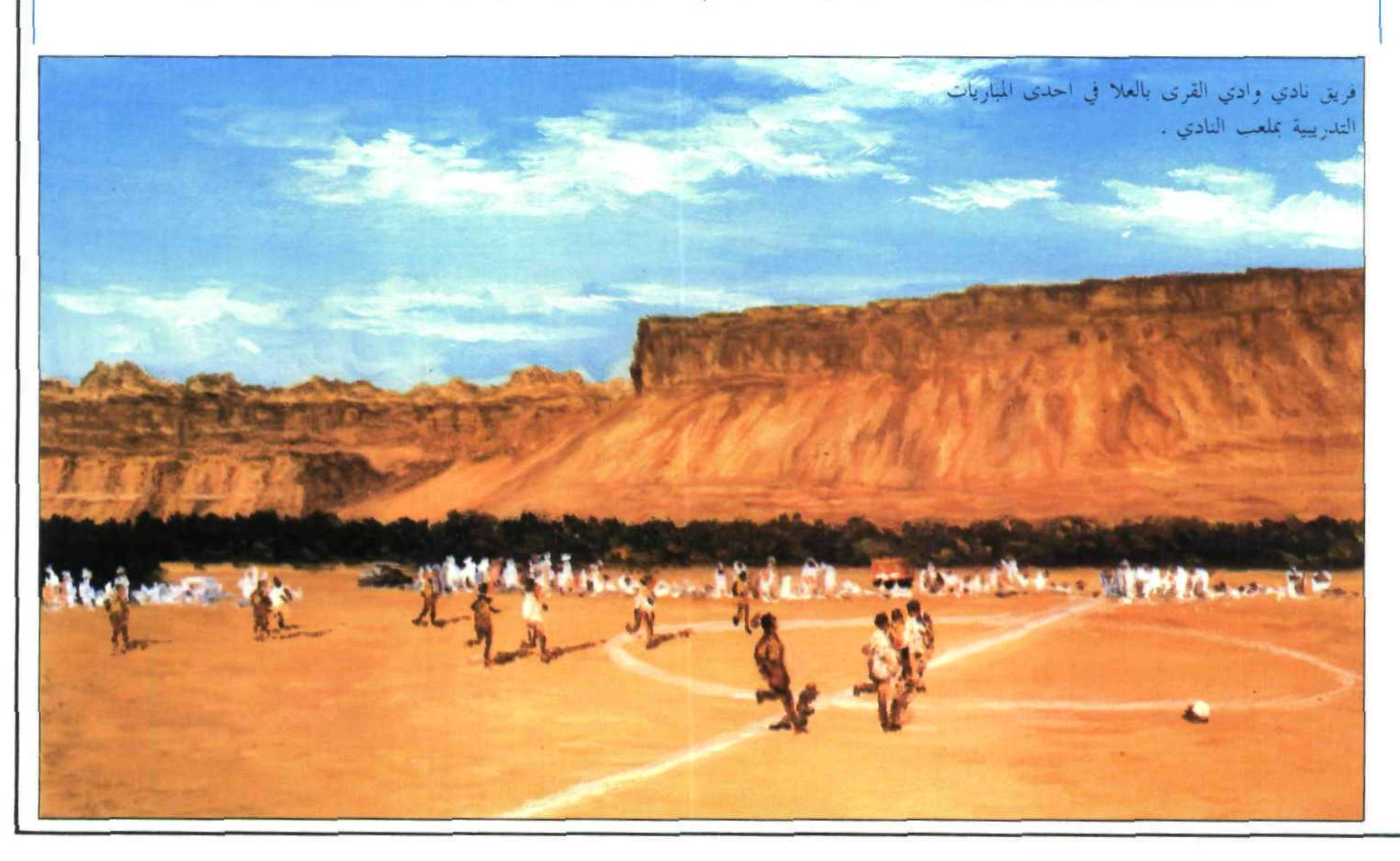
وتحدثنا المصادر انه في جمادى الآخرة من السنة السابعة للهجرة قد فتح رسول الله ، ﷺ ، وادي القرى « العلا » عنوة .. فحين فرغ ، عليه الصلاة والسلام ، من خيبر توجه الى وادي القرى فدعا أهلها الى الاسلام فامتنعوا عليه وقاتلوه ففتحها عنوة وأصاب المسلمون منهم أثاثا ومتاعاً فخمّسه رسول الله وترك النخل والأرض في أيدي اليهود وعاملهم على نحو ما عامل عليه أهل خيبر[١٦] . (ياقوت)

وولّى رسول الله ، ﷺ ، عليها عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية ، ثم ولّى عليها بعد فتح مكة يزيد بن أبي سفيان[١٧] .

وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، أخرج يهود خيبر وفدك ولم يخرج اهل تيماء ووادي القرى لأنهما داخلتان في أرض الشام ، وليستا من الحجاز ، وقيل ان عمر أجلى يهود وادي القرى[١٨] .

ويروى أن ما دون وادي القرى الى المدينة ، حجاز . وان ما وراء ذلك من الشام . ومن هنا ندرك مغزى كلام المؤرخين في تحديدهم لبعض المواقع عندما يقولون : بين المدينة والشام ، كوادي القرى مثلا ، يقال بين المدينة والشام .

وفي ضواحي وادي القرى (العـــلا) هناك مدينتان ازدهرتا ، إحداهما في عهد بني أمية وكانت تسمى في عهدهم « سقيا الجزل » ، و « سقيا بني أمية » و « سقيا يزيد » ثلاثة مسميات وتقع جنوب العلا على بعد خمسين كيلومترا في ملتقى وادي الجزل بوادي مطران ، وقد وصفها البشاري : انها أحسن مدن


فريق نادي وادي القرى بالعلا في احدى المباريات التدريبية بملعب النادي .

هذه الناحية . والمدينة الأخرى ازدهرت في عهد بني العباس وكانت تسمى « الرحبة » ثم عرفت فيما بعد باسم مدينة صالح .. وصالح هذا من بني العباس بن عبدالمطلب . وتقع مدينة الرحبة جنوب العلا على بعد عشرين كيلومترا وسكانها من ولد جعفر بن ابي طالب وهم الغالبون عليها ويعرفون بالواديين [١٩] . (مجلة العرب : عدد ١ رمضان وشوال ١٣٩٧ هـ) .

ومنذ بداية القرن السابع الهجري نجد أن اسم العلا يطغى على أسمائها السابقة ويكثر استعماله في روايات المؤرخين والرحالة كقول ابن شجاع الحنفي في كتاب ألفه سنة ٦٢٣ حين يصف العلا« العلا أرض رمل أبيض بين جبلين عاليين ... الخ »[٢٠] . وكوصف ابن فضل الله العمري لها في كتابه « مسالك الأبصار » بأنها إحدى مدن الحجاز . وقال عنها صلاح الدين الصفدي شعرا في رحلته الى الحج :[٢١] .

لقـــد بعـد العـــلا ونـأى محـــلا

وطـــال ونحـن نســأل عن عريبــه

ووصفها ابن بطوطة بقوله « والعلا قرية كبيرة حسنة لها بساتين النخل .

أربعــة أسـمـاء للعـــلا

وعلى امتداد تاريخها الطويل بدءاً بقرون ما قبل الميلاد ومرورا بقرون ما بعد الميلاد فالعصر الجاهلي ثم العصر الاسلامي الى اليوم ، قد تسمّت العلا بأربعة اسماء وهي كما مر معنا :

★ **ديـــدان** : حيث استوطنها الشعب الديداني وأنشأ فيها مملكته إبان القرن السادس قبل الميلاد والنسبة اليها ديداني .

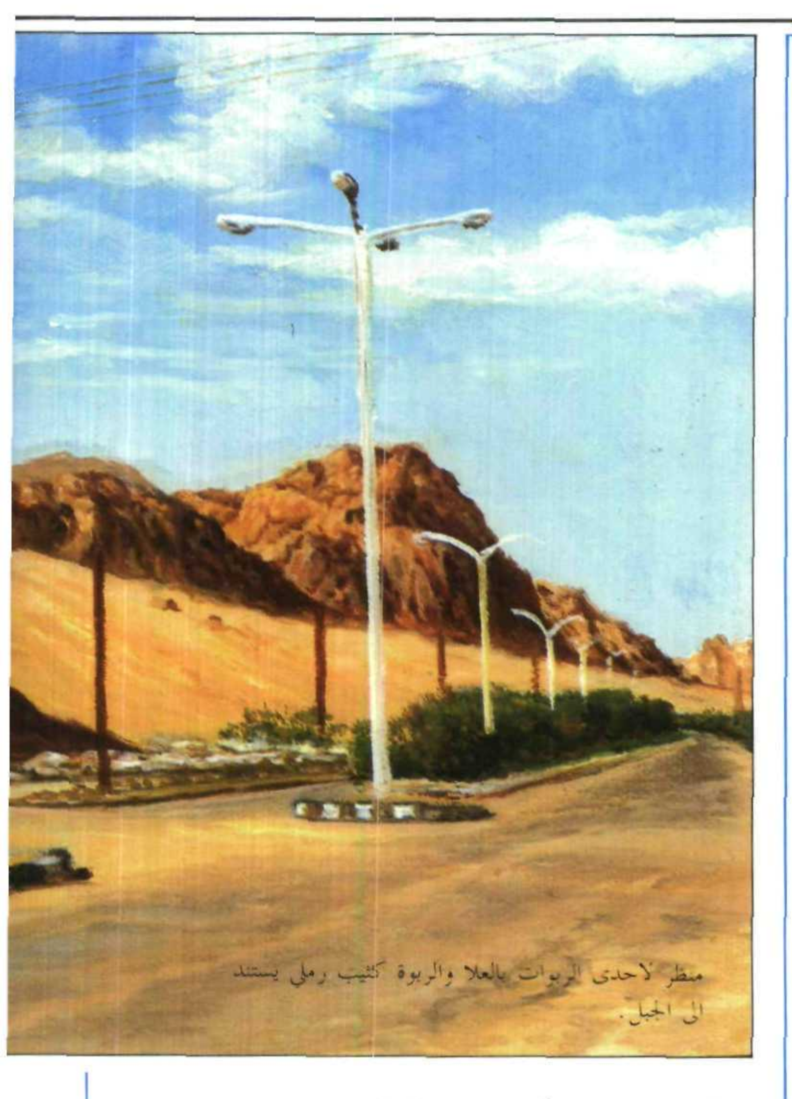
★ **قـــرح** : ثم في العصر الجاهلي اشتهرت بقرح حيث أصبحت سوقاً تجارية هامة من أسواق العرب في الجاهلية، وكما أشرت الى بيان ذلك من قبل . إلا أن سبب تسميتها بقرح لم يكن واضحا لعدم ورود ما يشير الى ذلك في كتب المؤرخين حسب اطلاعي .

ولعل التسمية مشتقة من عـض السلاح وآلامه .. جاء في معجم ياقوت : القرح — بضم القاف وفتحها — لغتان في عـض السلاح ونحوه مما يجرح الجسد[٢٢] ، والسلاح كان يصنع في وادي القرى « العلا » يستشف هذا من قول الأعشى :

منعت قيـــاس الماســخية رأســه

بســـهام يـــثرب أو ســـهام الـوادي

ويعني بذلك وادي القرى « لسان العرب » . ومن قول أبي حنيفة : ولكن النصال تعمل بيثرب وبوادي القرى

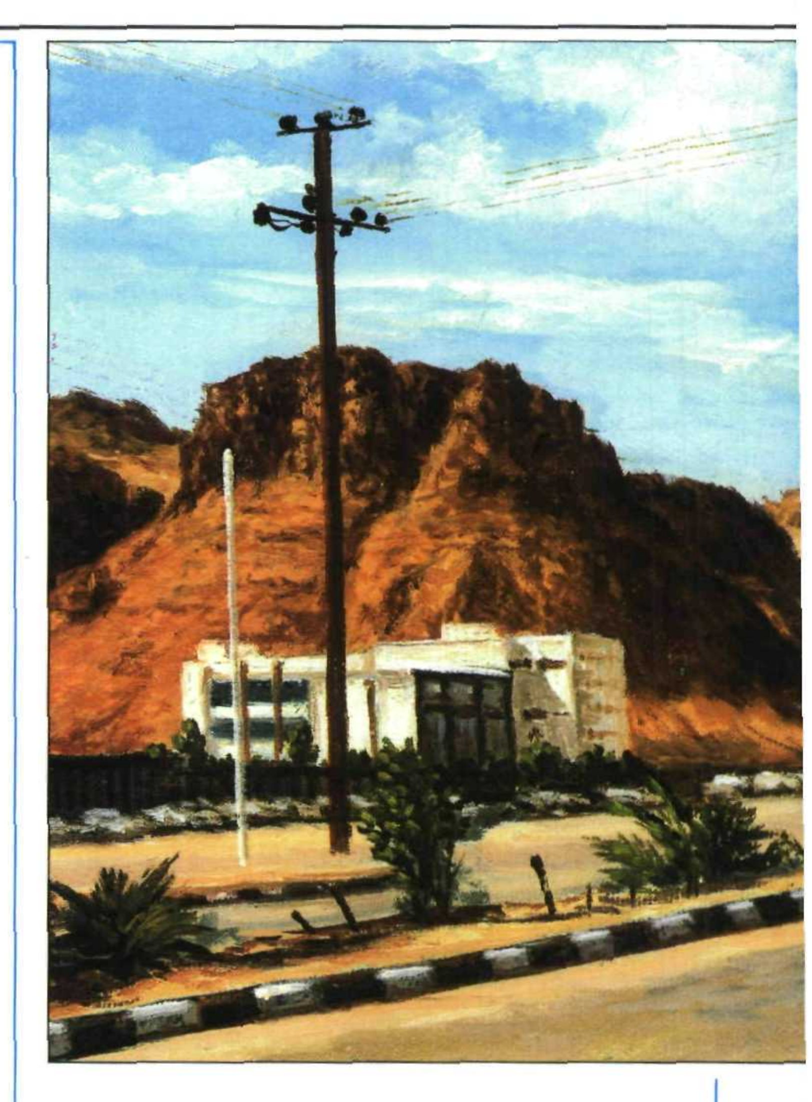


منظر لاحدى الربوات بالعلا والربوة كثيب رملي يستند الى الجبل.

وبالرقم وغيرها من أرض الحجاز [٢٣] .

ولعل التسمية أيضا قد اشتقت من القرح بمعنى أول الشيء يقال : فلان في قرح سنه أي في أولها [٢٤] .. وحيث ان موضع قرح من وادي العلا في أوله على ما أشارت اليه بعض المصادر فلعلها سميت بذلك لوقوعها في أول الوادي . ومع ذلك يبقى سبب التسمية غامضا وغير واضح .

★ **وادي القرى** : يبدو انه لما نزل اليهود وادي القرى « العلا » خلال العصر الجاهلي واستخرجوا كظائمها وأساحوا عيونها وغرسوا نخلها ثم نزول القبائل عليهم ، كما جاء في معجم ياقوت ، كثرت القرى في الوادي فقيل وادي القرى .. قال ياقوت : وادي القرى فيه قرى كثيرة وبها سمي وادي القرى . وقال ابو المنذر : سمي وادي القرى لأن الوادي من أوله الى آخره قرى منظومة [٢٥] .. وظل هذا الاسم علما عليها حتى نهاية القرن السادس الهجري . والنسبة اليه وادي كعمر الوادي .



★ **العـــلا** : وهو الاسم الذي اشتهرت به منذ بداية القرن السابع الهجري .

أمّا سبب تسميتها بالعـــلا ومتى سمّيت به فيبدو لنا انها تسمّت به منذ القرن الثاني الهجري ولكن التسمية لم يشع استعمالها الا منذ بداية القرن السابع الهجري لسبب من الاسباب .. ونستقي هذا من رواية وردت في تاريخ الطبري وكتاب الأغاني مفادها في كلا المصدرين :

« ان مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية قد أرسل جيشا من الشام لقتال أبي حمزة الخارجي الذي ظهر أمره في الحجاز ودخل المدينة بعد أن أوقع بأهلها في قديد .. وقد أرسل أبو حمزة أيضا جيشاً من المدينة لقتال مروان في الشام فالتقى الجيشان في وادي القرى . وحدث أن قابل رجل من جيش مروان غلاماً من أهل المدينة ، كان في وادي القرى في ذلك الوقت ، فسأله الرجل عن اسمه واسم أبيه ومولاه .. فأجاب الغلام ان اسمه العلاء بن افلح مولى المغيث .. فسر الرجل سروراً على ما يبدو وتفاءل خيراً مما جعله يسترسل في سؤال الغلام عن أين هم اليوم ، أي جيش مروان ، وأين غدا .. ويبدو ان الغلام لاحظ بفطنته سرور الرجل وتفاؤله فأحب ان يزيده سروراً وتفاؤلا فكان جوابه عن سؤاليه .. أنتم اليوم بالعلا وغداً بغالب ، فسرّ به الرجل وحمله الى قائد الجيش ليسمع منه فلما سأله رد عليه القول الذي قال .. فسر به القائد وأعطاه جائزة[٢٦] .

ويلوح لي أن الغلام لا يقصد أنكم في مكان اسمه العلا ومكان اسمه غالب ولكنه يقصد انكم في العلو وستعلون ان شاء الله على جيش ابي حمزة وستغلبونهم بحول الله . وهكذا كان ، فقد هزم جيش مروان جيش أبي حمزة شر هزيمة انتهت بقتل ابي حمزة ومن بعده طالب الحق والقضاء بذلك على امر الخوارج في الحجاز . ويظهر ان جيش مروان عندما يحل ذكر وادي القرى يقولون العلا استحسانا منهم لذلك الاسم وتيمنا به لانتصارهم فيه وعلوهم على الخوارج وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة ١٣٠ للهجرة[٢٧] .. إلا أن التسمية على ما يبدو لم تتناقلها الألسنة بكثرة إلا مع بداية القرن السابع الهجري لسبب من الأسباب قد يكون أحدها الرواية المتناقلة شفاها بين الناس اليوم وفحواها : انه كانت على إحدى عيون العلا القديمة وتسمى « المعلق » نخلات طوال عاليات يقال لهن « العِليّ » بكسر العين واللام بعدها وتشديد الياء . فيواعد البادية بعضهم بعضا عند هذه النخلات فيقولون مثلا تجدوننا عند العلي .. أو رأينا الفلانيين عند العلي وهكذا .. فلعل كلمة العلي حرف لفظها فيما بعد ليقال : العلى بكسر العين أو ضمها مع فتح اللام بعدها وقصرها .. وقد يكون ذلك أقرب الى الصواب .

مَكانة العـلا الأثريّة

ومن خلال العرض السابق ، يتضح لنا ان العلا تحتضن آثارا جمة وعلى المستوى الممتاز ومن كل العصور : عصر ما قبل الميلاد ، وعصر ما بعد الميلاد ، والعصر الجاهلي ، والعصر الاسلامي ، والعصر الحديث (وأقصد به القرنين الماضيين) وآثارها تعد في القمة وتعتبر واجهة الآثار في المملكة العربية السعودية .. وهي بذلك يمكن ان يطلق عليها « الوادي الخصيب » على غرار « الهـلال الخصيب » .. ويقول الأديب الراحل محمد حسن عواد : عندما اطلق « جيمس بريستد » على سوريا الطبيعية اسم الهلال الخصيب لم يكن يقصد بالطبع الخصب الزراعي بقدر ما أراد الخصب في الحضارات القديمة .. و « بريستد عالم آثار تخصص في الدراسات القديمة الشرقية والمصرية وكشف عن آثار قديمة في العراق

ومصر وليس عالما زراعيا أو عالم نبات [٢٨] .

ووادي العـلا يضم حضارات شامخة ومدنيات عريقة بدءاً بحضارة الثموديين ذات الشهرة العالمية ثم حضارة الديدانيين فحضارة اللحيانيين فحضارة المعينيين فحضارة الأنباط .. وكلها حضارات ماثلة للعيان اليوم ويشهد لها بالعمق والأصالة .. الى جانب حضارة قرح في العصر الجاهلي ممتدة الى العصر الاسلامي الذي يقول في وصفها المقدسي : ليس بالحجاز اليوم بلد أجل وأعمر وآهل وأكثر تجارة وأموالا وخيرات ــ بعد مكة ــ من هذه عليها حصن منيع ، وعلى قرنته قلعة قد أحدقت به القرى والتقت به النخيل ذو تمور رخيصة وأخبار حسنة ومياه غزيرة ومنازل أنيقة وأسواق حارة [٢٩] .

وفي العصر الاسلامي زخر وادي العلا بمجموعة من الآثار التي يجد فيها المنقب والدارس والباحث مجالا خصباً : كالمساجد النبوية التي يبلغ تعدادها فيه الستة .. والقرى الأثرية كالرحبة « المابيات حاليا » المدينة العباسية وسقيا الجزل أو سقيا يزيد المدينة الأموية .. الى جانب قنوات العيون المائية الثرة والتي يعود حفرها في جوف الأرض الى عهد الثموديين . وآثار الدولة العثمانية على امتداد سكة الحديد من قلاع واستصيونات في العلا لا تزال على حالة جيدة .. يضاف الى هذا أن وادي العلا كان معبراً رئيسياً لقوافل التجارة في القديم وأصبح طريقاً للحج في العصر الاسلامي يشهد بذلك وجود المحطات « القـلاع » التي أقيمت كنقاط استراحة للحجاج والمسافرين الى غير ذلك من الآثار التي تجعل من وادي العلا وادياً خصباً بحق يرتفع فيه الفكر وتفعم فيه النفسُ بالغذاء الذي تميل اليه .

ومضة من الفلكلور في العـلا

ولكل شعب فنونه الشعبية من عادات وتقاليد وأمثال وحكايات وحرف وطرز معيشة ومعمار وأنظمة وقوانين يسنها العرف . والفن الشعبي في العلا لا يمكن حصره في مقال ولكني اشير الى جانب منه كالزواج الذي له عادته وتقاليده التي لا يتم الا بموجبها وهي : الخطبة ، الكسوة ، الوفاء ، اللواق ، خياط الخصف ، النثاير ، القصة ، الحناء ، عشاء العريس ، اللصقة ، الدخول ، المنديل ، الهدوة ، الطاسة ، البياعة ، الحشار ، الطلوع ، الخشة ، الفتوح .

ولما كانت النخلة هي الزراعة الرئيسية في العلا منذ القدم فقد لعبت دورا هاما في حياة السكان حتى ان خوص النخلة وليفها قامت عليهما صناعة هامة ونشطة تغطي جزءا كبيرا من احتياجات الأسرة البيتية والعملية . يصنع من الخوص « الشنشورة » التي بدورها تقوم عليها عدة صناعات ، مثل صناعة الخصف والمناسف والنفيات والمكاتل والقفاف والمهاف والمجاليد والمعالف والنفى والمباحر .. الى غير ذلك . ومن الليف تصنع الحبال التي تستخدم في أغراض شتى في المنزل وفي العمل . هذه مجرد ومضة من الفن الشعبي في العلا .

الميـاه والزراعـة

لقد مر معنا أن أرض العلا تحوي ثمانين عينا .. واليوم قد استخرج المعاصرون من أهلها سبعا وثلاثين عينا أنشأوا عليها البساتين وأقاموا عليها المزارع . وأرض العلا غزيرة بالمياه إذ يبلغ عمق الماء عن سطح الأرض بمقدار يتراوح بين خمسة وعشرة أمتار وللماء وأهميته في الزراعة نظام خاص وقوانين وأعراف يتقيد المزارعون بها ويعملون وفق تعليماتها .

ولما كان النخيل هو الزراعة الرئيسية فالتمر يعتبر المحصول الرئيسي للفلاح وعليه يعتمد في غذائه وشراء ما يحتاجه من متطلبات الحياة الأخرى .. وتأتي بعد ذلك زراعة الحبوب بأنواعها والتي تغطي أيضا جزءا كبيرا من حياة الفلاح وسد احتياجاته .. وتجود فيها زراعة الليمون المالح والحلو والبرتقال والموز والجوافة والعنب وتغل محصولا وفيرا ، الى جانب زراعة الخضروات بمختلف أنواعها .

التعـليم في العـلا

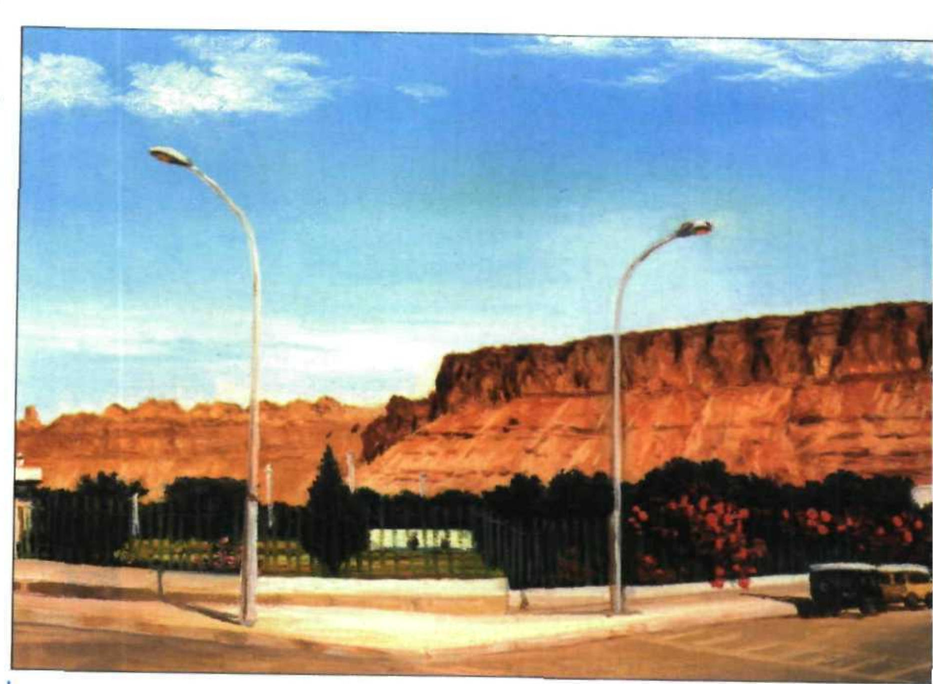
تاريخ التعليم في العلا قديم . ويقول الدكتور أحمد شلبي : وأول من اتخذ الخط مهنة له رجل من أهل وادي القرى أقام بها وعلم الخط قوما من أهلها [٣٠] .

وفي العهد التركي ، فتحت مدارس تعلم اللغة التركية الى جانب الكتاتيب التي يتعلم فيها الطلاب الخط والحساب والقرآن .. وأول مدرسة نظامية فتحت في العلا كانت عام ١٣٤٩ هـ . واليوم ، أصبحت مدينة العلا والقرى المحيطة بها التابعة لاماراتها تضم أكثر من خمسين مدرسة ما بين ابتدائية ومتوسطة وثانوية .. الأمر الذي فكرت وزارة المعارف من اجله ان تنشيء ادارة للتعليم في مدينة العلا تشرف على ذلك العدد من المدارس الآخذ في الازدياد في كل عام .. وقد باشرت ادارة التعليم فعلا اعمالها من غرة رجب من عام ١٤٠٢ هـ .

أما مندوبيّة تعليم البنات في العلا فتشرف على ثماني مدارس في منطقة العلا ما بين ابتدائية ومتوسطة وثانوية .. وكان قبلئذ بالعلا معهد للمعلمات حتى اذا غطى هذا المعهد حاجة المدارس الابتدائية من المعلمات المواطنات تمّ تحويله الى مدرسة ثانوية □



أحد الشوارع بمدينة العلا .



منظر لحديقة عامة بمدينة العلا .

الهوامـــش :

١ ــ معجم البلدان/ياقوت الحموي ص/٣٣٨ جـ ٣ دار صادر ــ بيروت .
٢ ــ « مجلة الدارة » عدد ٤ س/٥ ص/١٨٥
٣ ــ « مجلة الدارة » عدد ١ س/١ ص/٧٩
٤ ــ « المصدر السابق » ص/٧٩ ، ٨٠
٥ ــ « المصدر السابق » ص/٨٠
٦ ــ « مجلة الدارة » عدد ٣ س ٦ ص/٢٠ ، ٢١
٧ ــ « فتوح البلدان » للبلاذري ص/١٥ القسم الأول نشر د. صلاح الدين المنجد
٨، ٩ « معجم البلدان » لياقوت جـ ٤ ص/٣٢١
١٠ ــ « معجم البلدان » لياقوت جـ ٢ ص/٤٢٩
١١ ــ « مجلة العرب » جـ ٣ ، ٤ س ١٢ ص/١٨٣
١٢ ــ « وفاء الوفاء » للسمهودي جـ ٤ ص/١٢٨٨ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد
١٣ ــ « المغانم المطابة في معالم طابة » ص/٣٣٦ تحقيق حمد الجاسر
١٤ ــ « مجلة العرب » جـ ٣ ، ٤ س ١٢ ص/١٨٢
١٥ ــ المصدر السابق ص ١٨٣
١٦ ــ « معجم البلدان » لياقوت جـ ٥ ص/٣٤٥
١٧ ــ « فتوح البلدان » للبلاذري ص/٤٠
١٨ ــ « وفـاء الوفـاء » جـ ٤ ص/١٣٢٩
١٩ ــ « مجلة العرب » جـ ٣ ، ٤ س ١٢ ص/١٧٣ ، ١٧٦
٢٠، ٢١ « مجلة العرب » جـ ٣ ، ٤ س ١٢ ص/١٨٤
٢٢ ــ « معجم البلدان » لياقوت جـ ٤ ص/٣٢٠
٢٣ ــ « معجم لسان العرب » لابن منظور جـ ١٥ ص/٣٨٥ دار صادر ــ بيروت .
٢٤ ــ « المصدر السابق » جـ ٢ ص/٥٥٨
٢٥ ــ « معجم البلدان » لياقوت جـ ٤ ص/٣٣٨
٢٦ ــ « تاريخ الطبري » جـ ٧ ص/٣٩٨ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وانظر الاغاني لابي الفرج الاصفهاني جـ ٢٠ ص/١٠٨ .
٢٧ ــ « وانظر الاغاني » جـ ٢٠ ص/١٠٨ .
٢٨ ــ « الآثار في شمال الحجاز » لحامد بن حناوي القثامي جـ ١ ص/٧ .
٢٩ ــ « مجلة العرب » جـ ٣ ، ٤ س ١٢ ص/١٨٣ .
٣٠ ــ « تاريخ التربية الاسلامية » د. أحمد شلبي ص/٤٤ ط ٥ سنة ١٩٧٧ مكتبة النهضة المصرية .


NASA

سلطان بن سلمان بن عبد العزيز آل سعود

أول رائد فضاء عربي مسلم

سليمان نصر الله / هيئة التحرير

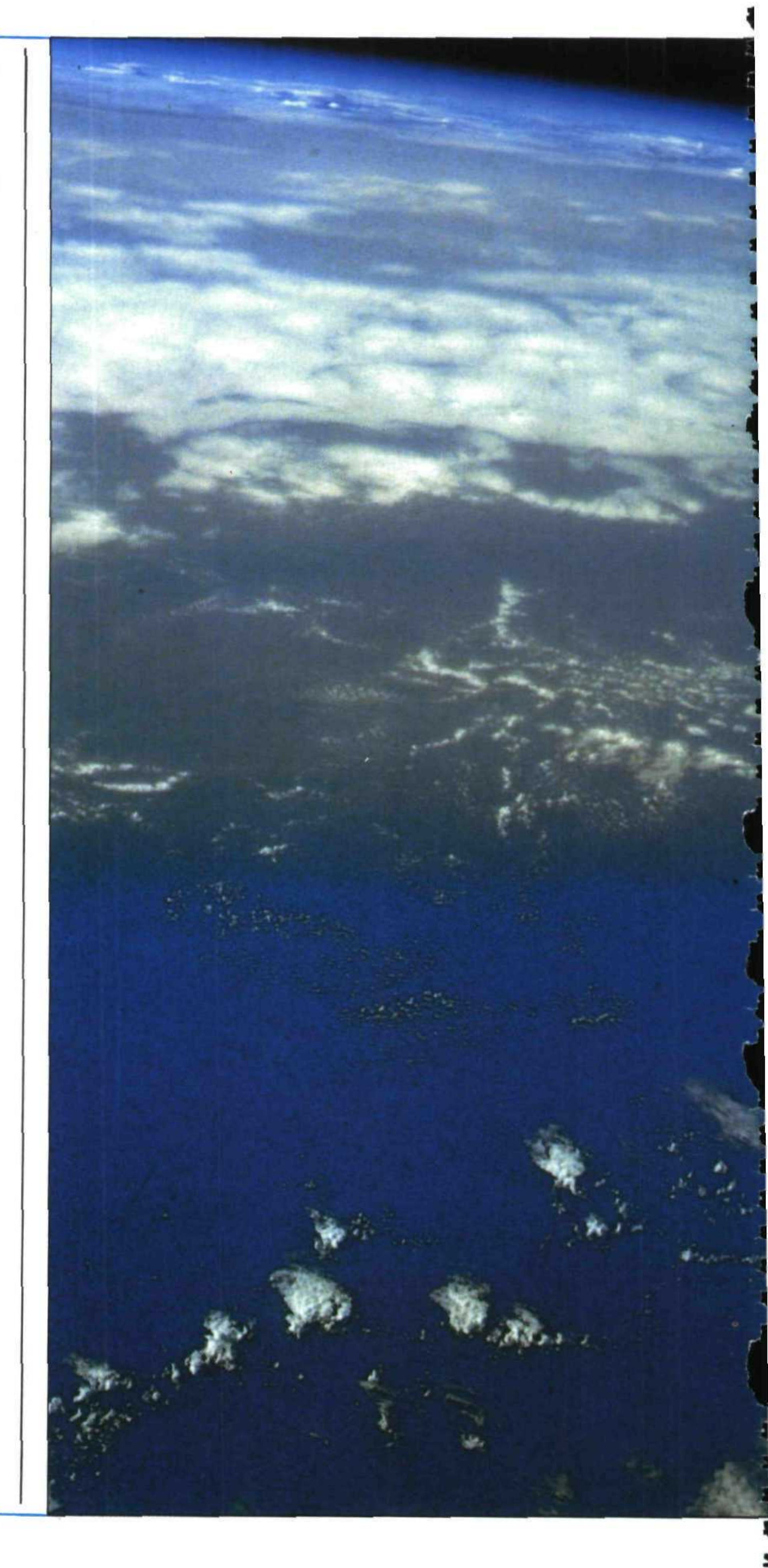
وعاد أمير الفضاء الشاب سلطان بن سلمان من رحلة مكوك الفضاء "ديسكفري" التاريخية، بعد أن سجل أروع الصفحات وأنصعها في تاريخ الأمة العربية والإسلامية. لقد ضرب سلطان، أول رائد فضاء عربي مسلم، المثل الأعلى في الطموح والجرأة والتحدي، وأعاد إلى الأذهان أن الأمة العربية هي أول من حمل مشاعل المدنية، وأن الإسلام هو دين التقدم والعلم والحضارة. لقد كان سلطان سفير العرب إلى الفضاء الخارجي.

إن اشتراك صاحب السمو الأمير سلطان ابن سلمان بن عبدالعزيز آل سعود في رحلة مكوك الفضاء «ديسكفري» ، كأول رائد فضاء عربي مسلم، يعكس بصورة جلية، أبعاد اهتمام حكومة صاحب الجلالة الملك فهد بن عبدالعزيز بالمجالات العلمية المعاصرة، والأخذ بأسباب التكنولوجيا الحديثة، والمشاركة في أبحاث الفضاء الجارية. لقد دخلت المملكة العربية السعودية، بهذه الرحلة التاريخية، عصر الفضاء من أوسع أبوابه. ودخولها هذا يجسد الاهتمامات الشاملة التي توليها القيادة السعودية لتطوير كافة الحقول العلمية والتقنية، وتحقيق أعلى المعدلات في برامج التطور الحضاري. فالنجاح الباهر الذي حققه الأمير سلطان ابن سلمان في هذه الرحلة المشهودة يتوج الجهود الطويلة المضنية التي بذلها جلالة الملك فهد بن عبدالعزيز، منذ أن تولى زمام مسيرة العلم والتعليم في المملكة قبل أكثر من ثلاثين عاما، وها هي اليوم تؤتي أكلها في مجال علمي رائد. ان رحلة اقتحام الفضاء التي بدأت بانطلاق مكوك الفضاء الامريكي «ديسكفري» من قاعدة «كيب كانفيرال» بولاية فلوريدا الأمريكية يوم الأثنين التاسع والعشرين من شهر رمضان المبارك لعام ١٤٠٥هـ الموافق السابع عشر من شهر يونيو ١٩٨٥م، لتأتي تتويجا لسلسلة طويلة من التدريبات الفضائية المرهقة، التي اثبت فيها رائد الفضاء السعودي الأمير سلطان قدرة الأجيال العربية الصاعدة على استيعاب علوم وتقنيات العصر، والتعامل معها بالخبرة والكفاءة، وتوظيفها في خدمة بلاده، وما يعود على الأمتين العربية والاسلامية بالخير. وقد تم اختيار الأمير سلطان لهذه الرحلة التاريخية من قبل لجنة من الخبراء في المنظمة العربية للاتصالات الفضائية «عربسات» التي تشكلت عام ١٩٧٦ م والتي تعتبر الكفيل الرسمي لمهمة الأمير سلطان بن سلمان.

عودة إلى الوراء

لكي ندرك الأبعاد العلمية لرحلة مكوك الفضاء «ديسكفري» . لا بد لنا من أن نعود القهقري، لنقف على المحاولات الأولى لارتياد الأنسان هذا الفضاء الرحب، واجتلاء أسرار الكون الفسيح. ان تطلعات الانسان الى التحليق في الفضاء قديمة، فقد تاقت نفسه الى التحليق في أجواز الفضاء كالطيور. ولعل الحديث عن محاولات تحليق الانسان في الجو، في وقت وصل فيه علم الطيران الى ما هو عليه اليوم، من الأمور التي تبعث على الدهشة والاستغراب، ذلك لأننا نعيش اليوم عصر الفضاء. فقد سخر الانسان الأقمار الصناعية التي تدور في مدارات عالية لخدمة البشرية، كما بلغت سرعة بعض

الطائرات النفاثة ضعف سرعة الصوت، فضلا عن ظهور الصواريخ عابرة القارات وتطوير صواريخ جبارة لدفع المركبات الفضائية الى مداراتها المرسومة. فحين بدأ الانسان يجتلي أسرار الكون بنفسه، انما كان يحقق أحد أعز الأحلام التي كان يتصورها منذ أعرق الأزمنة، ذلك هو حلم الارتحال الى الفضاء. وقد انعكس ذلك الحلم في الميثولوجيا وفي الأدب، منذ أقدم العصور، اذ نجده في أقاصيص اليونان الأقدمين، وفي روايات «جول فيرن»، وفي قصص كتَّاب التخيل العلمي المعاصرين، وكان أكثر هذه الحكايات أغنى بالخيال الجامع منه بالعقل المفكر. فقد اشتملت وسائط الانطلاق لرحلات الفضاء الخيالية على كل شيء، ابتداء من ريش اجنحة الطيور الملصق على جسم الانسان بالشمع، وانتهاء بالمدفع الجبار الذي يطلق قذيفة تحمل أشخاصا الى القمر. غير أن بعضا من رؤى رواد الفضاء هؤلاء في القرون الماضية، كان على قدر مدهش من صدق الحدس. لقد طرح سلفا كثيرا من المشكلات التي واجهها الانسان الحديث، عندما انطلق يجوب الفضاء. وكانت هناك نقطة مشتركة واحدة اتفق حولها جميع من فكر في الرحلات الفضائية، من حالمين وذوي نظرة علمية، وهي ان الرحلة تستحق المحاولة. أما أقدم ضحايا رحلات الفضاء فكان «ايكاروس» رجل الفضاء في الميثولوجيا اليونانية القديمة. وتروي الأسطورة انه غامر مع أبيه «ديدالوس» بالطيران في الجو مزودين بأجنحة من الشمع وريش الطيور. ومع أن الأب حذر ابنه بألا يقترب من الشمس في تحليقه، الا ان الشاب تجاهل تحذير أبيه، وبالغ في الاقتراب، فذاب شمع أجنحته وسقط في البحر وغرق، فكان أول ضحية لمشروعات اكتشاف الفضاء. وتشير بعض المصادر التاريخية الى أن أول طيار حلق بجسمه في الهواء هو الفيلسوف والشاعر والفلكي العربي «عباس بن فرناس»، وهو مخترع أندلسي من أهل قرطبة. عاش في عصر الخليفة عبدالرحمن الثاني بن الحكم في القرن التاسع للميلاد. لقد كان عباس ابن فرناس أول من فكر في الطيران وتقليد الطيور في التحليق عبر الأجواء الواسعة، فكسا جسمه بالريش، ومد له جناحين طار بهما في الهواء مسافة بعيدة، ثم هوى الى الأرض على ظهره، فكانت القاضية، لأنه لم يصنع لنفسه ذيلا، اذ لم يدر بخلده ان الطائر انما يقع على زمكه. ومع أن هذه المحاولة الجريئة أودت بحياة عباس بن فرناس، الا أنها فتحت الطريق لتحقيق ارادة الانسان في اقتحام الفضاء على أسس علمية وتقنية. واستمرت محاولات الانسان لاختراق الفضاء عبر العصور حتى جاء عصر النهضة الصناعية في أوروبا، فاخترعت المناطيد ثم الطائرات والصواريخ. وكان للتقدم العلمي الهائل في



النصف الثاني من القرن العشرين الأثر الأكبر في غزو الفضاء ، فجندت الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفياتي جميع الطاقات العلمية لديهما لاستكشاف الفضاء . ففي عام ١٩٥٧م اطلق الاتحاد السوفياتي قمره الأول « سبوتنيك » ، وفي اليوم الثاني عشر من شهر ابريل ١٩٦١م دخل «يوري جاجارين» السوفياتي التاريخ كأول رائد فضاء، وبالرغم من أن رحلته لم تكن غير دورة واحدة في الفضاء، إلا أن ذلك اليوم سيظل رمزا لنجاح الانسان في التحليق في الفضاء، فقد قال عند هبوطه الى الأرض: « لقد شهدت لهب النيران الملتمع يزمجر من حول المركبة . كنت داخل كرة من نار تندفع نزولا » . والجدير بالذكر، أن رائد الفضاء الأول لقي حتفه في حادث تحطم طائرة عادية . أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد قامت في اليوم الخامس من شهر مايو ١٩٦١م باطلاق المركبة الفضائية « ميركوري » حاملةً « آلن شيبرد » في رحلة دامت ١٥ دقيقة ارتفعت به ٤٨٠ كيلومترا فوق الاطلنطي ، دون ان تبلغ به المدار . ولم تبلغ الرحلات الفضائية المدار إلا في العشرين من شهر فبراير ١٩٦٢م عندما حلق « جون جلين » فكان أول رجل فضاء أمريكي يبلغ المدار . وشهد ٢٢ يوليو ١٩٦٩ حدثا تاريخيا بارزا عندما وطئت أقدام رائدي الفضاء الأمريكيين « ارمسترونغ » و « الدرين » سطح القمر . ومنذ ذلك التاريخ والتنافس على أشده بين امريكا وروسيا في رحلات الفضاء ، بحيث تعددت الأهداف والأغراض من هذه الرحلات المتتابعة ، فهي رحلات علمية واستراتيجية ، عن طريقها تطور كثير من العلوم ، كعلوم الحاسب الآلي ، والكيمياء ، والفيزياء ، والجيولوجيا ، والأدوية ، والاتصالات ، والبحث عن الثروات الطبيعية في الأرض . كما أمكن عن طريق رحلات الفضاء التوصل الى انتاج أجهزة كمبيوتر هائلة السرعة ، وانتاج مواد صناعية متطورة وسبائك معدنية جديدة .

والآن فقد شهد يوم الاثنين ٢٩ رمضان ١٤٠٥هـ (١٧ يونيو ١٩٨٥م) انطلاق أول رائد فضاء عربي مسلم على متن مركبة الفضاء الأمريكية « ديسكفري » ، محققا بذلك خطوة رائدة على طريق الطموحات العربية والاسلامية ، لاجتلاء أسرار الفضاء وتسخيرها لمعرفة خبايا الأرض وكنوزها . ان رائد الفضاء العربي الأول الأمير سلطان بن سلمان قد فتح آفاق الفضاء أمام أبناء الأمة العربية والاسلامية ، بل اطلق صرخة مدوية في العالمين العربي والاسلامي لحشد الطاقات العلمية والفكرية للحاق بركب الحضارة المعاصرة .

سُلطان والرحلة التاريخيّة

قبل انطلاق مكوك الفضاء « ديسكفري » تلقى رائد الفضاء الأمير سلطان بن سلمان والرائد الاحتياطي عبدالمحسن البسام تدريبات فضائية مكثفة في مدة لم تتجاوز ثلاثة شهور ، أثبتا خلالها قدرة فائقة على استيعاب المعلومات المتعلقة برحلات الفضاء ، والتكيف مع جميع الأحوال ، واكتساب المهارة في تشغيل الأجهزة الدقيقة . واشتملت التدريبات التي خضع لها الأمير سلطان والبسام وبقية أفراد طاقم مكوك الفضاء « ديسكفري »

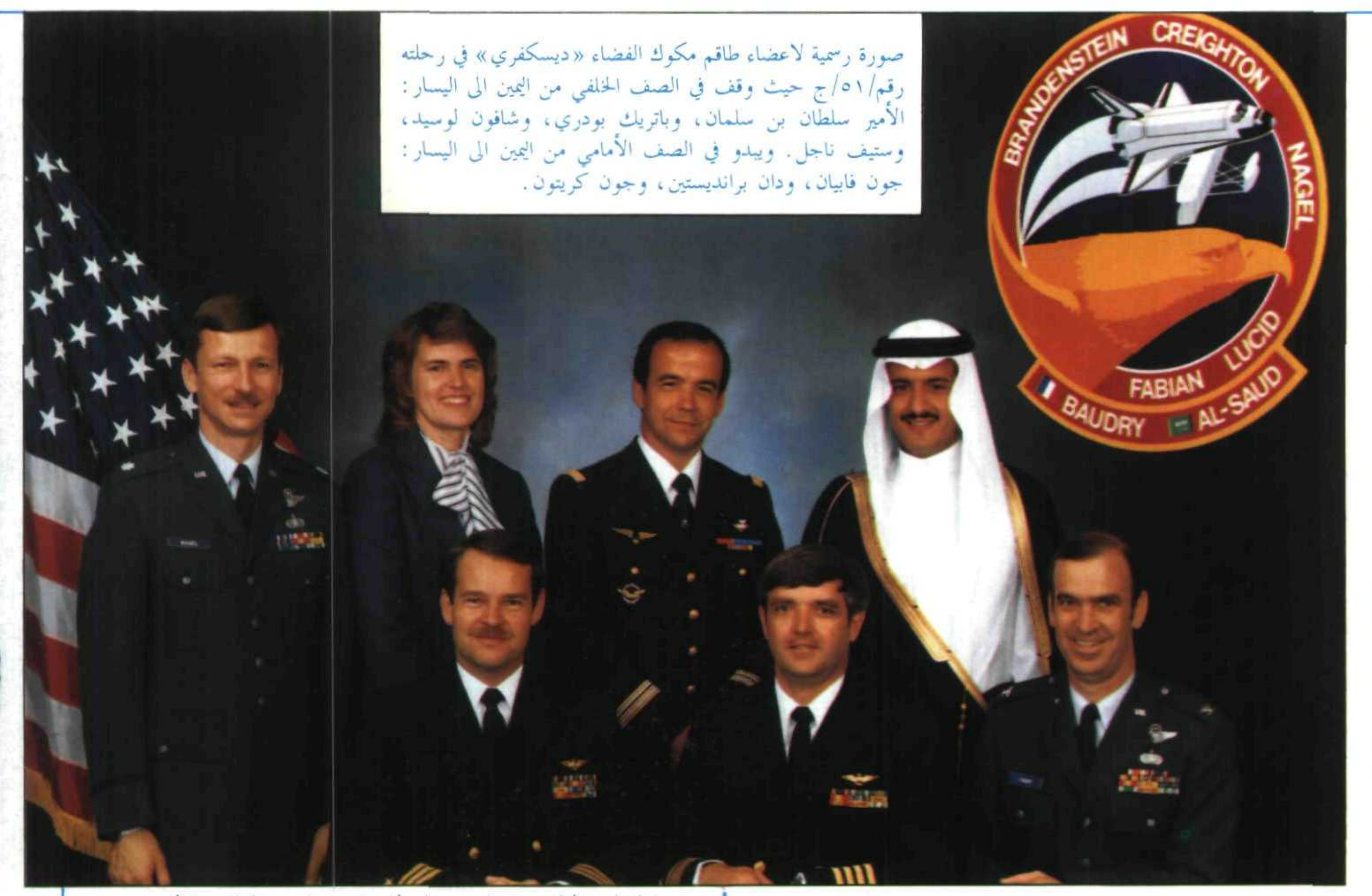




التدريب على حالة انعدام الوزن في مركبة خاصة تابعة لوكالة الفضاء الأمريكية «ناسا» في مركز جونسون للفضاء في ولاية تكساس.

على محاضرات علمية وفيزيائية ورياضية عن الفضاء، وكيفية العيش في حالة انعدام الوزن. لقد اجتذب الأمير سلطان بن سلمان أنظار الرأي العام العالمي ووسائل الاعلام الغربية والمسؤولين في وكالة الفضاء الأمريكية «ناسا» لسرعة استيعابه لكافة المعلومات العلمية في فترة زمنية قصيرة جدا، فهو يمتاز بالذكاء الوقاد وسرعة البديهة، أضف الى ذلك أن دماثة خلقه، ومرحه، وظرفه، وتواضعه، اكسبته صداقة الجميع ولاسيما زملاءه في الرحلة التاريخية، فكان الانسجام تاما بينهم. وانطلق مكوك الفضاء «ديسكفري» في رحلته رقم ٥١ ج التي تشرف عليها وكالة الفضاء الأمريكية «ناسا» في الساعة الثانية والنصف من بعد ظهر يوم الاثنين بتوقيت المملكة الموافق ٢٩ رمضان ١٤٠٥هـ في رحلة تاريخية استغرقت سبعة أيام كانت حافلة بالتجارب والاختبارات العلمية، وشدت اهتمام العالم بأسره، حيث شاهدها الملايين عبر شاشات التلفزيون. وقد أقل مكوك الفضاء «ديسكفري» سبعة رواد، منهم خمسة رواد أمريكيين هم: دانيال براندستين، قائد الرحلة، وجون كريتون، الطيار، وستيفن نيغل، أخصائي مهمات فضائية، وجون فابيان، أخصائي مهمات فضائية، والدكتورة شانون لوسيد، أخصائية مهمات فضائية. أما الرائدان الآخران فهما: باتريك بودري من فرنسا، أخصائي حمولة، والأمير سلطان بن سلمان من المملكة العربية السعودية وهو أخصائي حمولة. وجدير بالذكر أن الأمير سلطان حمل معه في المكوك عينات من زيت المملكة والكويت والجزائر، والتمر، وماء زمزم، والقرآن، وتسجيلات قرآنية. وقد اشتملت حمولة المكوك «ديسكفري» على القمر الصناعي المكسيكي «موريلوس» والقمر الصناعي العربي «عربسات ـ ٢»، والقمر الصناعي الأمريكي لخدمات البرق والهاتف «تلستار ـ ٣»، وقمر الأبحاث العلمية الأمريكي «سبارتان»، وتم اطلاق هذه الأقمار في مواعيدها المحددة خلال الرحلة. وقد دار مكوك الفضاء «ديسكفري» ١١١ دورة حول الكرة الأرضية على ارتفاع تراوح بين ٣٥٠ و ٣٥٢ كيلومترا، منها ٤٩ دورة فوق المملكة العربية. وخلال هذه الرحلة الفضائية المتميزة اضطلع الأمير سلطان بعدد من التجارب العلمية، كانت على جانب كبير من الأهمية، وتمت بنجاح كبير. وهبط مكوك الفضاء «ديسكفري» بعد نجاح مهمته في قاعدة ادواردز في صحراء «موهافي» بولاية كاليفورنيا الأمريكية في تمام الساعة ١٣,١٢ بتوقيت جرنيتش، أي الساعة ٤,١٣ من عصر يوم الاثنين ٧ شوال ١٤٠٥هـ الموافق ٢٤ يونيو ١٩٨٥م بتوقيت المملكة العربية السعودية. واستغرقت الرحلة التي قطع رواد الفضاء خلالها مسافة ٤,٦ ملايين كيلومتر في الفضاء سبعة أيام وثماني وثلاثين دقيقة وخمسين ثانية، وكان المكوك يسير بسرعة ٣٠٠٠٠ كيلومتر في الساعة. وكانت رحلة المكوك «ديسكفري»، وهي الرحلة رقم ١٨ له، أنجح ما تم حتى الآن من رحلات فضائية. ولدى هبوط المركبة الفضائية بسلام الى الأرض وجه جلالة الملك فهد بن عبدالعزيز كلمة الى المواطنين والى شعوب الأمتين العربية والاسلامية قال فيها:

«الحمدلله الذي أقر أعيننا بما نراه من خير في الأجيال، والصلاة على نبي الهدى والعلم والنور وعلى آله وصحبه اجمعين. أيها الأخوة: يسرني بمناسبة عودة مكوك



صورة رسمية لاعضاء طاقم مكوك الفضاء «ديسكفري» في رحلته رقم/٥١/ج حيث وقف في الصف الخلفي من اليمين الى اليسار: الأمير سلطان بن سلمان، وباتريك بودري، وشافون لوسيد، وستيف ناجل. ويبدو في الصف الأمامي من اليمين الى اليسار: جون فابيان، ودان برانديستين، وجون كريتون.

الفضاء «ديسكفري» سالما الى كوكب الارض وعلى متنه مع زملائه الأبطال أحد أبناء الشعب السعودي الكريم كأول رائد فضاء مسلم عربي، يسرني أن أتوجه بخالص التهنئة للمواطنين الأعزاء في المملكة العربية السعودية والى جميع شعوب الأمتين العربية والاسلامية بنجاح مهمة ابنهم جميعا سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز آل سعود. هذا الابن البار الذي كان تمسكه بعقيدته عماد نجاحه والذي تشرف بتمثيل بلاده وأمته لأول مرة يسجلها التاريخ بمداد الفخار في أدق وأنجح عملية اقتحام للفضاء .. وذلك من خلال الانجاز العلمي العظيم الذي شاهدناه والذي سيسطره العلماء ان شاء الله في خدمة البشرية جمعاء ولكل ما يحقق الخير والأمن والسلام في الأرض».

جلالة الفهد يتحدث إلى سلطان في المركبة الفضائية

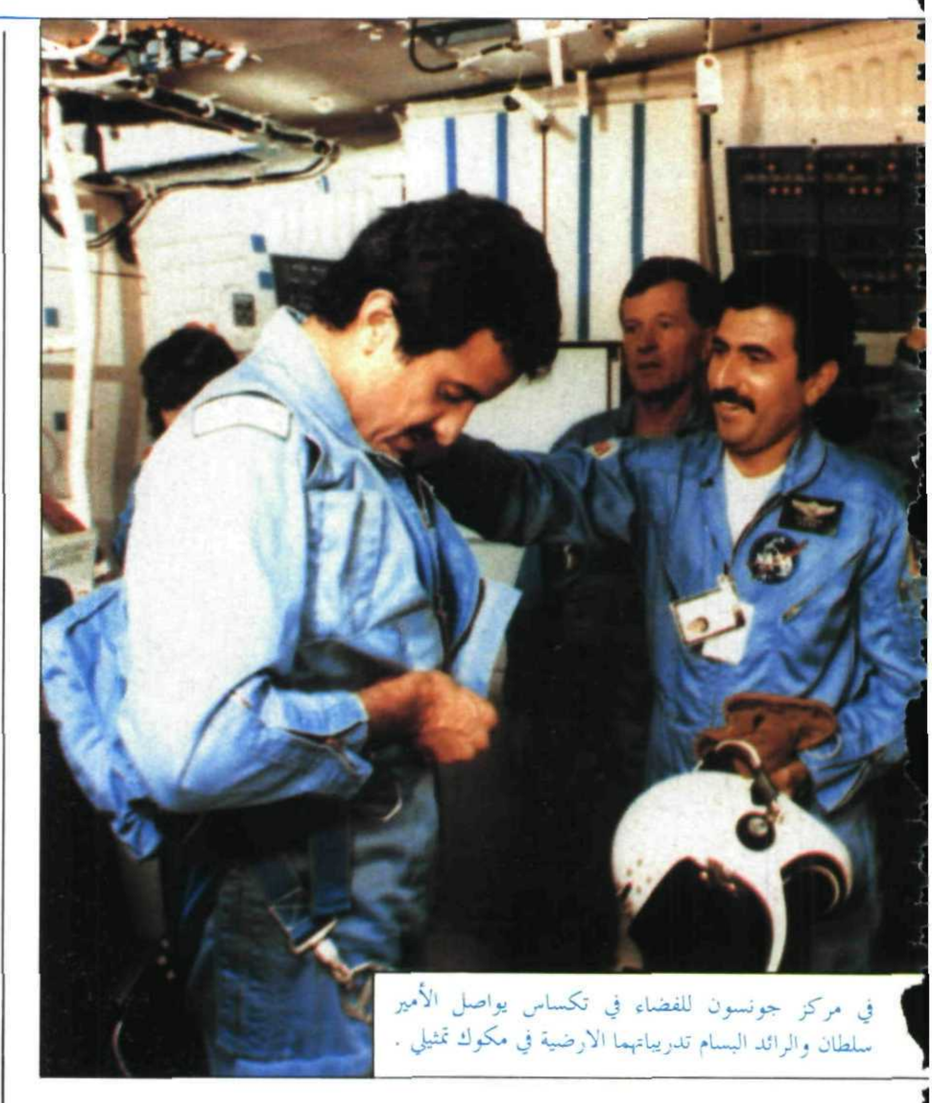
كان من أبرز أحداث الرحلة الفضائية المحادثة الهاتفية التي أجراها العاهل السعودي الملك فهد بن عبدالعزيز مع رائد الفضاء الأمير سلطان بن سلمان، وشاهدها الملايين من السعوديين والعرب والأجانب على شاشات التلفزيون في حينها. لقد استغرقت محادثة جلالته خمس دقائق، وكانت باللغتين العربية والانجليزية. قال جلالة الملك فهد في محادثته باللغة العربية: «الأبن العزيز سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز آل سعود .. أنتهز هذه الفرصة لأبعث لك ولزملائك من وطنك المملكة العربية السعودية أطيب التمنيات على متن هذه الرحلة التي سوف تكون ان شاء الله لخدمة الاسلام والمسلمين والأمة العربية، اننا فخورون بأدائك مهمتك الناجحة في الفضاء ونتمنى لك عودة سعيدة. أبلغ تحياتي لفخامة الرئيس ريجان وللشعب الأمريكي الصديق». وتهدج صوت الملك فهد مستطردا: «ماذا عساي أن أقول، أنني سعيد جدا لرؤياك على التلفزيون الملون .. وأعطيك أباك .. تحدث الى أبيك». ورد الأمير سلطان بقوله: «أشكرك يا سيدي على هذه الكلمة وأرجو الله أن تصل تحياتك للجميع وأحمد الله على هذه المهمة وان شاء الله نكون على مستوى المسؤولية». واضاف رائد الفضاء العربي قائلا: «مولانا طويل العمر أنا لم أكن لوحدي في هذه المهمة، الفريق العلمي السعودي الذي يرأسه الدكتور عبدالله الدباغ وكذلك زميلي وأخي في التدريب عبدالمحسن البسام الذي سهر الليالي وتعب معي وموجود الآن في محطة المتابعة، أتمنى طال عمرك ان الجميع كان

معي على هذه الرحلة ويشوفون اللي أشوفه ولكن ان شاء الله تحصل الفرصة في المستقبل للمزيد من الشباب . أشكرك يا طويل العمر على هذه المكالمة وأرجو إن شاء الله أن يكون في عملنا هذا خير للاسلام والمسلمين والأمة العربية جمعاء . وفي أمان الله يا طويل العمر ونراكم ان شاء الله على خير واذا كنتم تأمرونا، طال عمرك، بشيء من هنا » . رد الملك : « شكرا .. شكرا .. ما في شك أتمنى لزميلك البسام كل التوفيق وفي الرحلة القادمة ان شاء الله.. مع السلامة». وبعدها أعطى جلالة الملك فهد سماعة الهاتف الى شقيقه الأمير سلمان بن عبدالعزيز، أمير منطقة الرياض، الذي تحدث مع نجله الأمير سلطان بكلمات مؤثرة قال فيها: « أهلا سلطان .. الحمدلله على نجاح رحلتك .. أرجو أن تبلغ تحياتي لزملائك. والدتك وأختك يسلمون عليك وطيبين وبخير وان شاء الله نشوفك بالسلامة وبالتوفيق ان شاء الله .. وأحسن خبر سمعته اليوم انك ختمت القرآن في الفضاء، وهذا شيء نشكر الله سبحانه وتعالى عليه، دائم التوفيق ان شاء الله ومع السلامة » . ثم أخذ الملك فهد سماعة التلفون وقال: « يا سلطان .. يا الابن .. سلطان .. أكرر مرة أخرى تمنياتي الطيبة لك ولزميلك وأشكر هيئات التلفزيون في المملكة العربية السعودية وعلى رأسها وزير الاعلام والمساعدين له وكذلك هيئات التلفزيون في محطات الولايات المتحدة الأمريكية ومن قام وساهم معنا في هذا العمل الجليل وأتمنى لك وللعلماء السعوديين الذين في انتظارك كل التوفيق والنجاح وشكرا والى اللقاء ان شاء لله » .

والجدير بالذكر ان جلالة الملك فهد بن عبدالعزيز المفدى قد أمر باقامة قبة فلكية في مدينة الرياض بمناسبة الرحلة التاريخية التي قام بها سمو الأمير سلطان بن سلمان ابن عبدالعزيز لكي يواصل العلماء ابحاثهم من خلال المركز العلمي الذي ستحتوي عليه القبة والذي سيشتمل على أجهزة علمية ترصد حركة الكواكب .

الفريق العلمي السعودي والتجارب العلمية

لقد رافق رحلة مكوك الفضاء « ديسكفري » فريق علمي سعودي من معهد البحوث في جامعة البترول والمعادن بالظهران برئاسة الدكتور عبدالله عيسى الدباغ، مدير المعهد، للاشراف على التجارب العلمية واطلاق القمر الصناعي العربي « عربسات — ٢ »، الذي تشرف عليه المنظمة العربية للاتصالات الفضائية (عربسات) . ويتكون الفريق العلمي السعودي من مجموعة ممتازة من العلماء والمهندسين في جامعة البترول والمعادن بالاضافة الى دكتور سعودي



في مركز جونسون للفضاء في تكساس يواصل الأمير سلطان والرائد البسام تدريباتهما الارضية في مكوك تمثيلي .

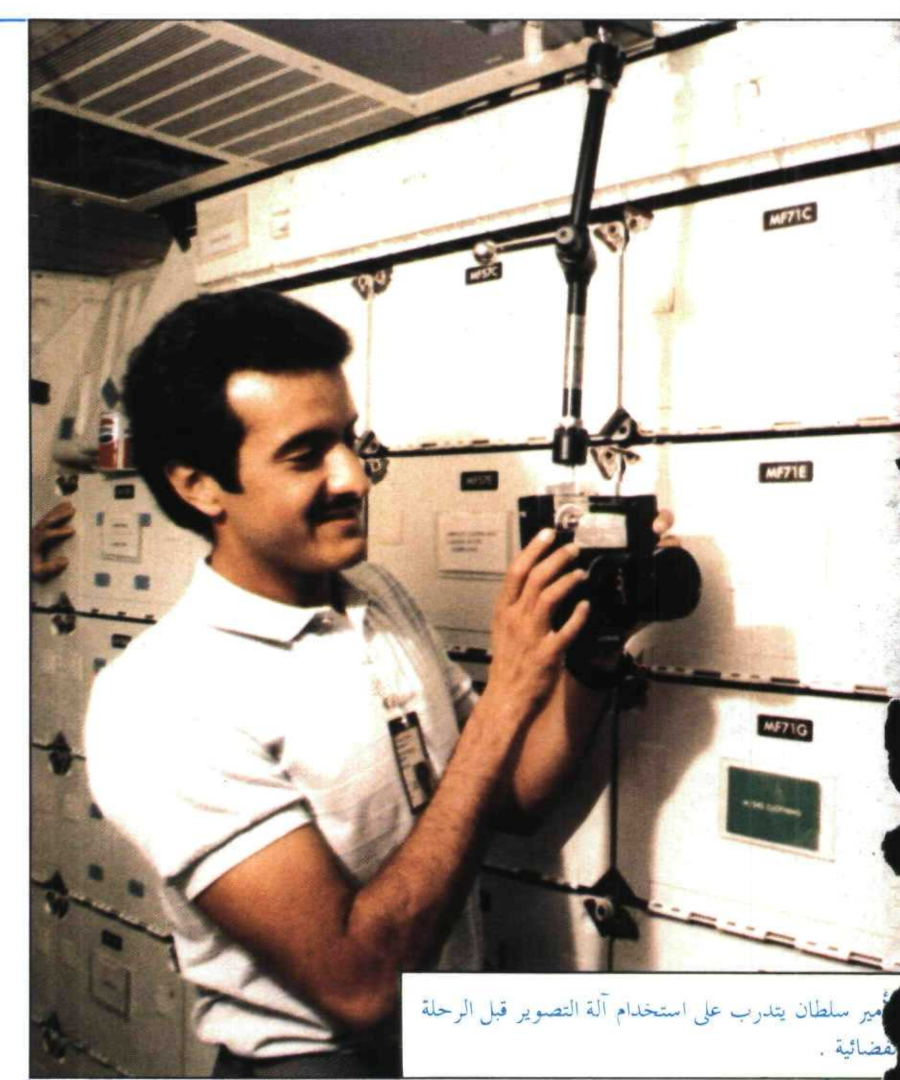


سلطان وعبدالمحسن يتدربان على أجهزة التحكم الخاصة بمكوك الفضاء .

متخصص في أبحاث الفضاء في جامعة ستانفورد الأمريكية ، وطبيب ممارس من جامعة الملك فيصل بالدمام ، ومدير دائرة الجيولوجيا في وزارة البترول والمعادن . وتألف الفريق العلمي السعودي من الدكتور عبدالله عيسى الدباغ ، والدكتور منصور عثمان ناظر ، والدكتور محمد ابراهيم السويل، والدكتور هاشم عبدالله يماني ، والدكتور زيني جمال ساعاتي ، والدكتور جورج بوكر ، والدكتور ناصر عبدالله الحميد، والدكتور محمد أسعد توفيق، والدكتور عبدالقادر محمد السري، والدكتور عدنان محمد نيازي ، والدكتور محمد زامل الفعر ، والدكتور حمزة خضر عصر ، والأمير تركي بن سعود بن محمد آل سعود، والدكتور عبدالعزيز ابراهيم المانع، والدكتور نور الدين محمد عباس، والدكتور محمد عمر بدير، والدكتور سعد محمد الراجح، والدكتور علي محمد أبو صالح، والاستاذ فارس ميزر الحربي لتقديم الدعم الاداري. ولم يقتصر عمل اعضاء الفريق العلمي السعودي على التجارب العربية الخاصة ، وانما شاركوا زملاءهم العلماء الباحثين من أمريكا وفرنسا في تجاربهم المختلفة الأخرى . وقد قام هذا الفريق بشرح التجارب والمهمات الأخرى لرائد الفضاء الأمير سلطان بن سلمان والرائد الاحتياطي عبدالمحسن البسام . واشتملت هذه المهام والتجارب العلمية التي انجزها الأمير سلطان بنجاح باهر، اطلاق القمر الصناعي العربي «عربسات — ٢» باعطاء اشارة تشغيل المحرك عن طريق محطة الأقمار الصناعية في ديراب القريبة من الرياض . فقد قام الأمير سلطان ، اخصائي الحمولة ، بمراقبة ومتابعة اطلاق القمر الصناعي العربي الثاني عند اطلاقه من المركبة الفضائية « ديسكفري » ، ومراقبة اشتعال الحضيض الذي مكن قمر الاتصالات العربي الثاني من الارتفاع من مداره المنخفض الى مدار الأوج على ارتفاع ٣٦٠٠٠ كيلومتر، وهو مداره الثابت حول الأرض . ومن التجارب العلمية الأخرى التي اضطلع بها رائد الفضاء الأمير سلطان تجربة مزج وفصل السوائل عندما تكون الجاذبية في مستوى الصفر، وهي تجربة ذات طابع علمي أساسي لفهم ميكانيكية وديناميكية ارتباط السوائل وفصلها . والاهتمام التطبيقي هذا هو اجراء التجارب على سوائل مكونة من الزيت السعودي الخام وبعض المكونات الأخرى كالماء والأملاح . والهدف من ذلك فهم طبيعة الشد السطحي للسوائل الذي يمكن ان يفيد في عملية استخراج الزيت من الأرض ويسمح بتصور طرق أخرى تساهم في عملية زيادة انتاج البترول من المكامن ، أضافة الى أن هذه التجربة تفيد في مجال مكافحة التلوث المائي في البحار والمحيطات نتيجة تسرب الزيت الى الماء من جراء الحوادث

الرائد الاحتياطي السعودي عبدالمحسن البسام يتدرب على استخدام آلة التصوير .

التي تصيب ناقلات الزيت . ولهذا الغرض ، قام الأمير سلطان أثناء الرحلة بوضع عينات من الزيت السعودي والكويتي والجزائري ، أضيف اليها ماء ، في وعاء شفاف مقسم الى ١٥ حجيرة في كل منها كرة معدنية صغيرة تقوم بمهمة الخلط ، ثم مَخَض الموعاء ، وراح يلتقط الصور التي تتابع كافة أطوار فصل السوائل ، ودون ملاحظاته لتحليل كل ذلك فيما بعد ، وقام الأمير سلطان بالتقاط عدد كبير من الصور الفضائية لبعض المناطق في المملكة أثناء دوران المكوك فوقها مستخدما آلة تصوير خاصة من نوع « هاسلبلاد » ، وسيتم تحليل هذه الصور الفضائية في مركز معالجة الصور الفضائية الذي انشىء في معهد البحوث بجامعة البترول والمعادن عام ١٤٠٣هـ ، ويحتوي على نظام الصور الفضائية ومعالجة المعلومات المتعلقة بالاستشعار عن بعد . وستستخدم هذه الصور اضافة الى صور من رحلات سابقة للمكوك ، والى المعلومات المتوفرة من الأقمار الصناعية « لاندسات » في اجراء دراسات علمية مختلفة ذات طابع جيولوجي ، علاوة على استخدامها في تطبيقات علمية أخرى . وبالاضافة الى

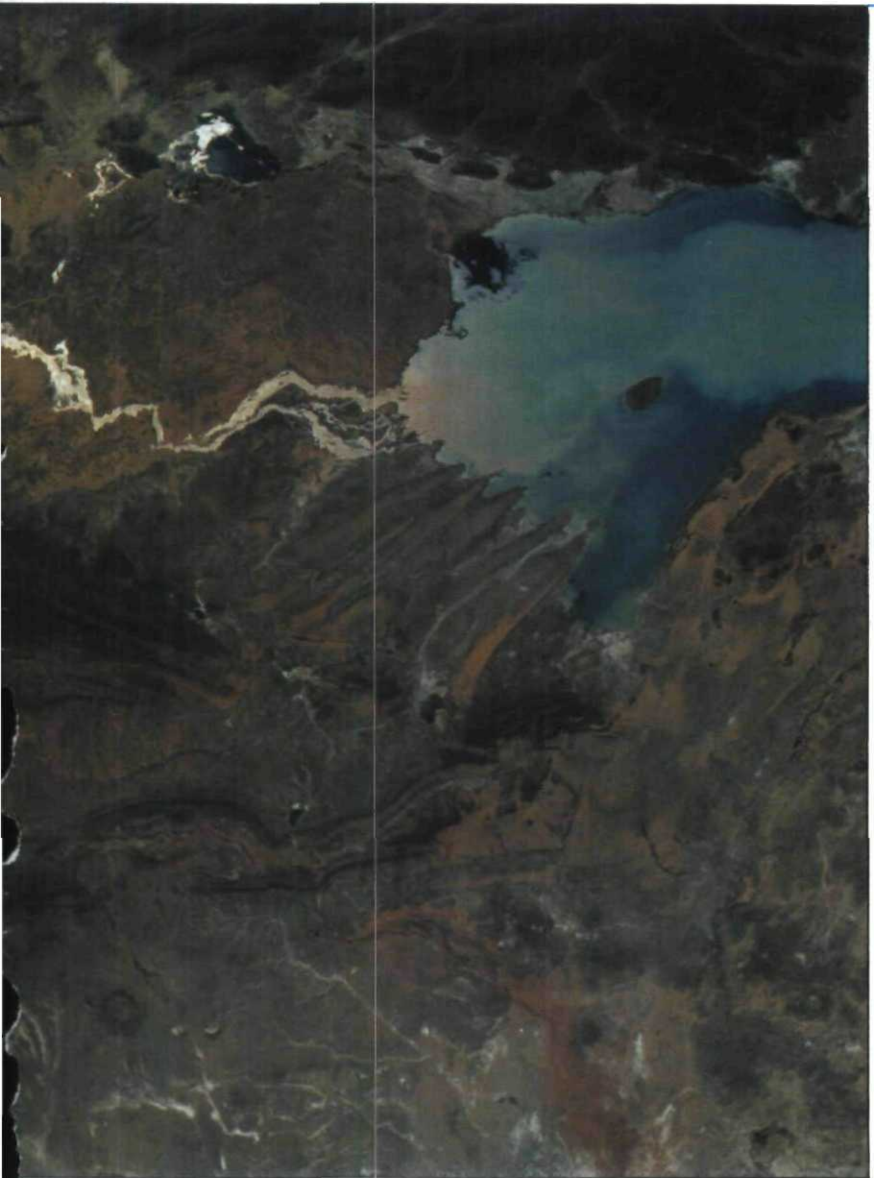


أمير سلطان يتدرب على استخدام آلة التصوير قبل الرحلة فضائية .

ذلك فقد أجرى الأمير سلطان تجارب طبية مع الرائد الفرنسي « باتريك بودري » . وهذه التجارب هي حلقة في سلسلة من التجارب العلمية التي يهتم بها الأطباء والعلماء الفرنسيين . وتتلخص هذه التجارب في محاولة فهم تكيف اعضاء الجسم البشري وأنظمته المختلفة في ظروف انعدام الجاذبية . وهذه التجارب الطبية ذات فوائد علمية كبيرة ، وتتصل بشكل مباشر بجهود الانسان في اكتشاف الفضاء ، وتوقع اقامة محطات مدارية فضائية يسكنها بشر للقيام بأبحاث ودراسات وأنشطة صناعية . ومشاركة السعودية في هذا المجال سيتيح الفرصة للعلماء والأطباء السعوديين المشاركة في النتائج العلمية والمتابعة لهذه التجارب مستقبلا . وهناك تجربة دراسة الغاز المؤين ، التي اقترحها الأمير تركي بن سعود بن محمد آل سعود ، كجزء من برنامجه لنيل درجة الدكتوراه من جامعة ستانفورد . والهدف الأساسي لهذه التجربة هو تطوير نظرية جديدة تتناول التأين الناتج عن الغازات الخارجة من المحركات الصاروخية ، وميكانيكية انتشار هذه الغازات في الفضاء الخارجي ، وتداخل الغازات مع ذرات الايونوسفير ، والاشعاعات الناتجة عن هذه الغازات . وهذه التجربة هي موضع اهتمام وكالة الفضاء الأمريكية « ناسا » وجامعة ستانفورد ، وجامعة البترول والمعادن ، لأن هذا الموضوع يفيد في مجالات عديدة كمجالات الاتصالات اللاسلكية والرحلات الفضائية وعلوم الطيران وغيرها . وقد تحرى رائد الفضاء ، الأمير سلطان ، رؤية هلال شهر شوال بالعين المجردة من نوافذ مكوك الفضاء ، وزف البشرى الى المملكة والعالم الاسلامي . وقد شملت مهام مكوك الفضاء « ديسكفري » علاوة على اطلاق اقمار الاتصالات المكسيكي والعربي والأمريكي ، اطلاق قمر الأبحاث العلمي « سبارتان » لجمع المعلومات ثم الالتحام به واستعادته الى المكوك ، وتجربة أشعة ليزر ضمن برنامج حرب النجوم ، وتحري البقع السود في المجرة .

سُلطان في مؤتمر صحفي بالطائف

كان لعودة رائد الفضاء الأمير سلطان بن سلمان ابن عبدالعزيز الى أرض الوطن ، بعد رحلته الميمونة ، أعظم الأثر في نفوس المواطنين ، على الصعيدين الرسمي والشعبي ، فقد استقبل في مدينة الطائف ، مصيف المملكة الجميل ومقر الحكومة الصيفي ، استقبال الأبطال ، وكان جلالة الملك فهد بن عبدالعزيز على رأس مستقبلي الأمير سلطان بن سلمان ، والرائد الاحتياطي عبدالمحسن البسام والفريق العلمي السعودي برئاسة الدكتور عبدالله عيسى الدباغ . وقد أمر جلالته بمنح وشاح الملك عبدالعزيز لسمو الأمير سلطان ابن سلمان وتعيينه في القوات الجوية السعودية برتبة رائد طيار . كما أمر جلالته بمنح وسام الملك عبدالعزيز للرائد طيار عبدالمحسن البسام وترقيته الى رتبة مقدم طيار . وأمر جلالته بمنح أوسمة رفيعة لجميع أعضاء الفريق العلمي السعودي ، الذين أسهموا في أعمال هذا الانجاز العلمي الرائع . وقامت رعاية الشباب ، ممثلة بصاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز ، الرئيس العام لرعاية الشباب ، بتكريم رائد الفضاء الأمير سلطان ابن سلمان ورفاقه ، وقد تزامن استقبال الأمير بالطائف مع دورة كأس العرب لكرة القدم ، فاستقلّ الأمير سلطان والرائد الاحتياطي البسام عربة على شكل مكوك الفضاء « ديسكفري » ، أعدت خصيصا لهذا الغرض ، ودارا بها في أرض الملعب في مدينة الملك فهد الرياضية بالطائف ، ليحييهما الشباب من الوطن العربي . وامتدت احتفالات تكريم الأمير سلطان بن سلمان ، وزميله عبدالمحسن البسام ، وفريق العلماء السعوديين ، الى المدينة المنورة ، والرياض ، وأبها ، وغيرها من مدن المملكة



١

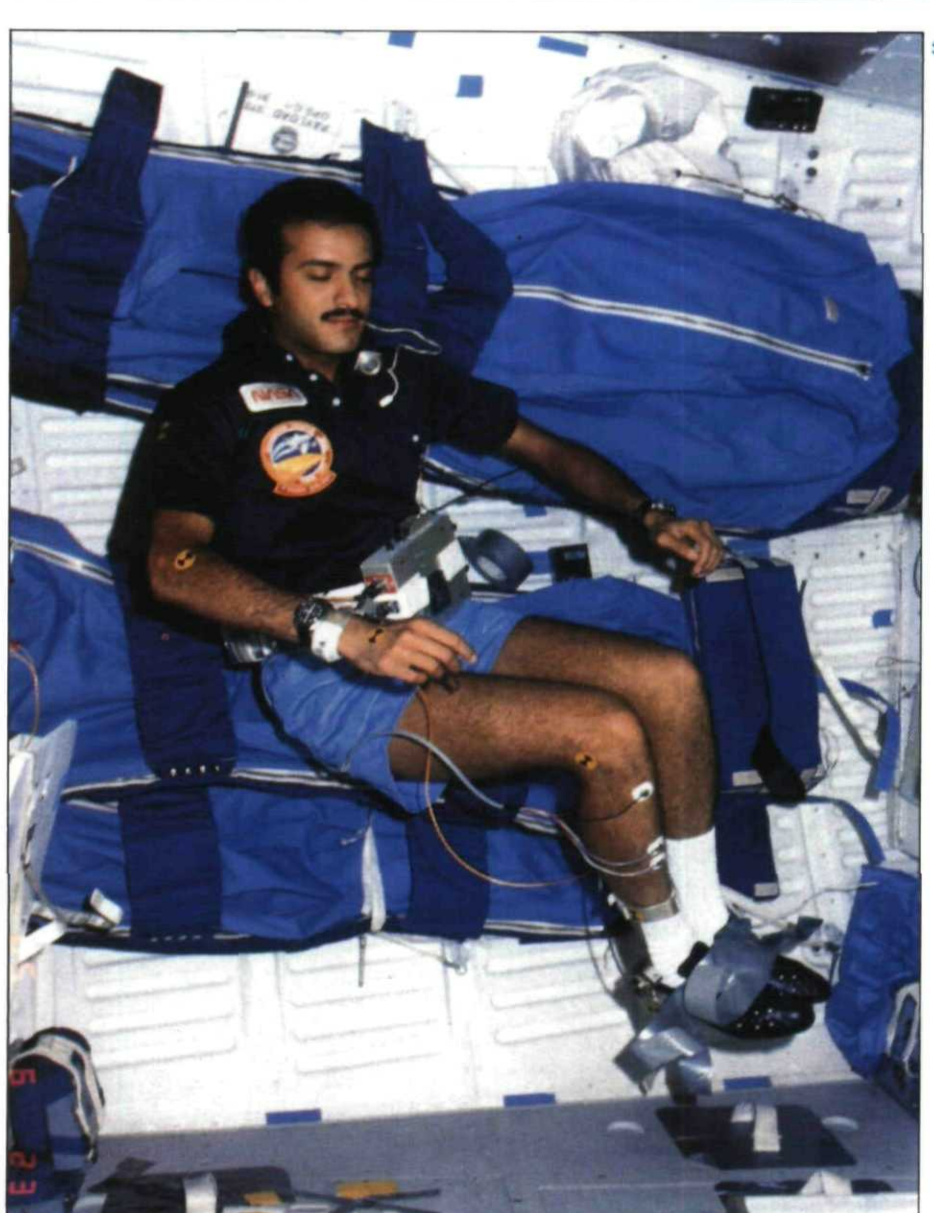


٢

العربية السعودية . ولعل التقاءه برجال الصحافة والاعلام في الطائف يوم الاثنين ٢٠ شوال ١٤٠٥هـ، في مؤتمر صحفي استغرق نحو ثلاث ساعات ، يعكس مدى تقديره للكلمة ورسالة الصحافة ، فقد قدم لرجال الصحافة والاعلام معلومات اضافية عن تفاصيل رحلته الفضائية التاريخية . لقد اضفى سموه على المؤتمر ، بشخصيته المحببة ، ودماثته ، وعفويته ، وصراحته ، جوا لطيفا ، فكان المؤتمر الصحفي وكأنه لقاء عائلي بين أفراد أسرة واحدة ، كيف لا وأن سموه يعتبر نفسه نصير أصحاب مهنة المتاعب ، بصفته واحدا من أصحابها . لقد حضر هذا المؤتمر معالي وزير الاعلام السعودي الأستاذ علي بن حسن الشاعر ، والاستاذ ابراهيم القدهي ، وكيل وزارة الاعلام ، والرائد الاحتياطي المقدم طيار عبدالمحسن البسام ، والدكتور عبدالله عيسى الدباغ واعضاء الفريق العلمي السعودي . وقد عقد المؤتمر في قاعة المؤتمرات بفندق « المسرة انتركونتننتال » واستهله وزير الاعلام الاستاذ علي الشاعر بكلمة ضافية قدم فيها رائد الفضاء الأمير سلطان بن سلمان قائلا : « أيها الأمير الرائد والزميل الاعلامي العائد سلطان ابن سلمان، ها أنت معنا اليوم بعد فراق حسبناه الدهر وقد اعادك الله الينا قرير العين بطموحك وآمالك على القدر بما أنجزته من مهماتك وأعمالك ، أنت معنا اليوم بكل ما مثلت به الاسلام عقيدة والعروبة وطنا في انجح رحلة فضاء علمية تسخر في خدمة الانسان . أذكرك يوم جئت تفضي إليّ بسر عزمك على اتخاذك قرارك الخطير وأذكرك بما قلته لك يومذاك ان فعلت ، وأنت لها أهل ، كتبت صفحة جديدة مشرقة في سفر الامجاد الحافل ببطولات الآباء والأجداد ، وفتحت بابا طالما حسبوه وهما وسرابا ، فاذا عزمت فتوكل على الله . واستطرد الوزير في كلمته الى ان قال : نحن اليوم هنا أيها الزملاء العلماء مع نخبة خيرة من رجال الصحافة وصناع الكلمة جاءوا يسألونكم الأخبار ويبحثون عن الأسرار » .

بعد ذلك تحدث صاحب السمو الأمير سلطان بن سلمان حديثا مسهبا فكانت كلماته وعباراته تدخل القلب ، وقد أعرب عن تقديره وشكره العميق للملك فهد بن عبدالعزيز لما قدمه من دعم لبرنامج الرحلة الفضائية ، وما تفضل به من توجيهات قيمة له ولزميله البسام . وأشار الى ان هذه التوجيهات السامية كان لها الأثر الكبير فيما تحقق من نتائج مشرفة . وأشار الأمير رائد الفضاء العربي المسلم الأول الى أن تمسكه وزملاءه بعقيدتهم الاسلامية وعاداتهم وتقاليدهم العربية الاصيلة النابعة من العقيدة الاسلامية حققت لهم النجاح المأمول ، وزادت من اعجاب جميع من عملوا معهم في وكالة







١ ـــ صورة فضائية للأرض التقطها الأمير سلطان تبدو في بعضها أجزاء من المملكة العربية السعودية.

٢ ـــ اعضاء طاقم مكوك الفضاء « ديسكفري » يقفون حول شعار الرحلة ٥١ ـــ ج في بذلات الفضاء.

٣ ـــ على منصة الاطلاق وقف رواد الفضاء في صورة تذكارية.

٤ ـــ الأمير سلطان يشارك في التجربة الطبية التي يجريها « باتريك بودري » على متن مكوك الفضاء « ديسكفري ».



رائد الفضاء الأمير سلطان يدون ملاحظاته ويومياته خلال أيام رحلة الفضاء التاريخية .

الفضاء الأمريكية واحترامهم لهم . ونوه الأمير بالجهود المضنية التي بذلها اعضاء الفريق العلمي السعودي ، في سبيل الاستفادة القصوى من الرحلة والتجارب العلمية ، التي أجريت على متن مكوك الفضاء « ديسكفري » . وقبل ان يفتح باب طرح الاسئلة على الأمير ، شاهد الحضور فيلما يصور الرحلة التاريخية التي شارك فيها الأمير سلطان ، كأول رائد فضاء عربي مسلم يصعد للفضاء الخارجي ، وتولى سموه التعليق والشرح على الفيلم الوثائقي لوقائع الرحلة ، منذ لحظة اطلاق مركبة الفضاء « ديسكفري » وحتى هبوطها في البحيرة الجافة في كاليفورنيا . ان تعليقات الأمير على دقائق وتفاصيل الرحلة من ألفها الى يائها ليؤكد مدى الاستعداد النفسي والذكاء الفطري والتكيف السريع التي يتمتع بها الأمير الرائد ، فقد استطاع في فترة لم تتجاوز الشهرين استيعاب كل ما يتعلق بالمركبة ، وأجهزتها ، ووظائفها ، اضف الى ذلك انه أحاط بتفاصيل التجارب العلمية التي اسندت اليه . ونوه سموه بالانسجام التام بين أفراد طاقم المكوك ، فكان لذلك أثره الكبير في نجاح المهمات التي انطلق المكوك من أجلها . وركز الأمير سلطان على الناحية العلمية ، وأشار الى أن المجال أمام العلماء العرب والمسلمين واسع . وأوضح سمو الأمير سلطان بن سلمان ابن عبدالعزيز بأن نتائج التجارب التي أجريت خلال الرحلة ستكون للعالم أجمع ، وستنشر مستقبلا في منشورات متخصصة على المستوى العالمي . وحول سؤال وجهه مندوب القافلة الى سمو الأمير فيما يتعلق بتجربة فصل السوائل ومدى تأثيرها على اساليب استخلاص الزيت من المكامن ، احال سموه الرد على السؤال الى الدكتور محمد زامل الفعر ، الاستاذ المشارك في جامعة البترول والمعادن ، وأحد المشتركين في تجربة فصل السوائل ، طالبا منه عدم الاطالة في الجواب ، ومداعبا إياه بان العلماء كالصحفيين اذا استرسلوا في الكلام . قال الدكتور الفعر : ان الغرض الاساسي من هذه التجربة هو معرفة تأثير انعدام الجاذبية على الظاهرة الشعرية . فالمعروف لدينا ان السائل في الأنبوب الشعري يتحرك من أسفل الى أعلى ، أي ضد الجاذبية الأرضية ..فنحن نهدف من وراء هذه التجربة الى الحصول على قوانين فيزيائية جديدة ، تساعدنا على فهم الظاهرة الشعرية ، وبالتالي على استخراج النفط المعزز بطريقة أفضل . أما بشأن تجربة الغاز المؤين فيقول الأمير تركي بن سعود بأنها مرتبطة بمجال دفع الصواريخ في الفضاء . فهناك تطبيقات في مجالات محركات الصواريخ والطائرات ، وكذلك تطبيقات في مجالات الاتصالات ، حيث ان ظاهرة التأين تؤثر على الاتصالات ، وأن فهم هذه الظاهرة يساعدنا في تطوير هذه الاتصالات الفضائية ، كذلك التطبيق في مجال الاجهزة الحساسة في الأقمار الصناعية كالخلايا الشمسية وأجهزة الارسال والاستقبال ، وهذه مجالات سوف نستفيد منها في المستقبل . وعلق الدكتور عبدالله الدباغ ، رئيس فريق البحث العلمي ، في معرض اجابة الأمير سلطان على سؤال حول أهداف هذه الرحلة فقال : ان نتائج التجارب العلمية التي قام بها الفريق العلمي السعودي من نوعيات ثلاث : تجارب علمية نتائجها اثراء المعرفة التراكمية في العلوم الطبيعية ، وتجارب علمية

الأمير سلطان بن سلمان يجيب عن سؤال وجهه اليه أحد رجال الصحافة والاعلام في المؤتمر الصحفي الذي عقد بالطائف .

لها تطبيقات محددة وواضحة يمكن ان تلمسها في خلال عدة سنوات قادمة ان شاء الله ، وتجارب علمية تتعلق بالمراقبة الأرضية والاستشعار عن بعد ، وهذه لها تطبيقات واضحة ومحددة ولها أثر اقتصادي ايجابي ملموس على الحياة الاقتصادية واستخراج المعادن والبيئة في المملكة . واختتم معالي الاستاذ علي بن حسن الشاعر ، وزير الاعلام ، المؤتمر الصحفي بتوجيه الشكر للأمير سلطان وزملائه ولرجال الصحافة والاعلام .

أقوال على الهامش

★ **جلالة الملك فهد بن عبدالعزيز :**

« أشكر الله على ما قدر وأنعم به على هذه البلاد بأن جعل أول رائد فضاء من أبناء المملكة العربية السعودية ، وهذه نعمة كبرى ان دلت على شيء فهي تدل على رضا رب العزة والجلال ان شاء الله على هذا الشعب » .

ان ما حدث هو انجاز تاريخي سوف تسجله الأجيال في الحاضر والمستقبل ان شاء الله ولن يكون هذا آخر الانجازات بل سوف تتبعه انجازات ان شاء الله في ما هو مفيد للعقيدة الاسلامية وللمملكة العربية السعودية » .

★ **صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز وزير الدفاع والطيران :**

« ما حققه سلطان وزملاؤه .. عمل مجيد » .

★ **صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض :**

« ان هذه الرحلة انما تخدم اهدافا علمية ويجب ان نعتز كمواطنين سعوديين بأننا وصلنا الى مرحلة من التعليم والتطور جعلتنا نستوعب هذه المهمة وجعلت علماءنا يقومون بأبحاث فضائية تخدم العلم وتخدم المملكة والعالم العربي والاسلامي » .

★ **صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز- الرئيس العام لرعاية الشباب :**

« ان مشاركة أخي سمو الأمير سلطان وزميله أخي الرائد عبدالمحسن البسام وهما من المملكة العربية السعودية بالاضافة الى الفريق العلمي السعودي في هذه الرحلة الفضائية العلمية الهامة باسم وطنهم وشعبهم ، وباسم شعوب أمتهم العربية وأمتهم الاسلامية جددت الأمل العربي والاسلامي في نهضة حضارية حديثة يصنعها العربي المسلم بقدراته الفذة وفي مقدمة هذه القدرات ايمانه بالله وبعقيدة الاسلام الحنيف » .

★ **معالي الأستاذ حسين منصوري وزير المواصلات السعودي :**

« اشتراك مواطن سعودي في هذه الرحلة يعطي للعالم صورة مشرفة عن المملكة » .

★ **الشيخ عبدالله بن خميس– الشاعر والأديب السعودي المعروف :**

« يا رائدا نفذ الطباق وجالها
ما السبق الا ما شهدت خلالها
صور من الكون العريض كشفتها
وسبرت منها كنهها وجلالها
وشهدت ما أعيا القرون مناله
وأجبت بالحق المبين سؤالها »

★ **السيد الشاذلي القليبي – الأمين العام لجامعة الدول العربية :**

« ان مشاركة الأمير سلطان تمثل حدثا مثيرا في حد ذاته ، فهذه المشاركة هي تجديد لحلم العلماء العرب

الأوائل في استكشاف الفضاء وهم الذين كان لهم فضل الريادة في علوم الفلك والرياضيات ومناهج التفكير » .

★ **البروفيسور هيوبرت كورين ــ وزير البحث العلمي والتكنولوجيا الفرنسي :**

« أنا سعيد من الأعماق بأن رائدا فرنسيا يشارك مجموعة الرواد في هذه الرحلة كما أنا سعيد بوجود الرائد السعودي الأمير سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز ، فكل قدرة نكتسبها معا من بحوث علمية في الفضاء ممتازة ومهمة » .



ــ معالي الاستاذ علي بن حسن الشاعر ، وزير الإعلام ، يلقي كلمة يقدم فيها الأمير سلطان ابن سلمان الى رجال الصحافة السعودية والعربية في المؤتمر الصحفي بالطائف .

★ **الدكتور فاروق الباز ــ مدير معهد سميثونيان ومدرب رجال الفضاء :**

« اشتراك رائد فضاء عربي في البرنامج الفضائي يتيح لنا دخول هذا الميدان من أوسع أبوابه » .

★ **السيد جان ماري لوتون ــ نائب المدير العام للوكالة الوطنية الفرنسية لأبحاث الفضاء :**

« أنني سعيد بمشاركة رائديْ الفضاء العربي الأمير سلطان بن سلمان والفرنسي باتريك بودري في تجربة واحدة تدرس مدى ملاءمة الانسان للعيش في الفضاء الخارجي والذي يترتب عليها مدى قدرة الانسان للتأقلم في المحطات المدارية في المستقبل » .



★ **الاستاذ عبدالله شقرون ــ الأمين العام لاتحاد الاذاعات العربية :**

« ان الخطوة التي حققها الأمير سلطان مفخرة ليس فقط لشخصه الكريم أو لبلاده الناهضة وانما هي مفخرة لكافة البلدان العربية والاسلامية المحبة للعلم والتطور والنماء » .



★ **جيسي مور ــ مدير رحلات رواد الفضاء في « ناسا » :**

« لقد حققنا كل اهدافنا على وجه التقريب في هذه الرحلة وأنني لمتفائل فيما يتعلق بقدرتنا على القيام برحلة كل شهر حتى نهاية العام الحالي » .

★ **البيت الأبيض :**

« ان البيت الأبيض سعيد جدا بنجاح هذه الرحلة للمركبة « ديسكفري » ونحيي مشاركة صاحب السمو الأمير سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز في هذه الرحلة للمكوك ونأمل أن تضاعف من سبل التعاون بين البلدين ونعمق روابط الصداقة فيما بيننا » .

★ **جيمي كارتر ــ الرئيس الأمريكي السابق :**

« رحلة الأمير سلطان تمثيل حي لروابط الصداقة السعودية الأمريكية » .

★ **ريتشارد نيكسون ــ الرئيس الأمريكي السابق :**

« المملكة العربية السعودية أكثر دولة في العالم النامي استخدمت وطوعت التكنولوجيا لصالح شعبها » .

★ **رونالد ريجان ــ الرئيس الأمريكي :**

« ان هذا الحدث يدل على عظمة الدراسات العلمية والرياضية العربية التي سبق فيها العرب دول العالم الأخرى » .

★ **الدكتور عبدالله الدباغ ــ مدير البحوث بجامعة البترول والمعادن ورئيس الفريق العلمي السعودي :**

« ثلاثة أبعاد استفدناها من الرحلة الفضائية وهي اطلاق « عربسات » ، وصعود أول رائد فضاء عربي ، والاستفادة من العلوم الحديثة . وأود أن أشير الى أنه يوجد في المملكة العربية السعودية كفاءات وطاقات علمية هائلة تنتشر في الجامعات المختلفة ، وان لدى هذه الكفاءات ابحاثا في غاية الأهمية وهي دائبة على اجرائها ، ولذلك فان الصعود الى الفضاء واشتراكنا في رحلة « ديسكفري » لم يكن عملا خارقا كما انه لم يكن عملا ارتجاليا لا سيما وان لدينا تجارب وأبحاثا علمية رفيعة نحن مقتنعون بأنها ستفيد المجتمع البشري والانسانية جمعاء ، وأن الجديد في الأمر اننا باجرائها اثناء رحلة المكوك انما اخترنا بيئة جديدة تساعدنا على الحصول على معلومات اخرى نستطيع من خلالها ان نطور هذه الابحاث وان نتوسع بها » .

★ **الدكتور بكر عبدالله بن بكر ــ مدير جامعة البترول والمعادن بالظهران :**

« الشهور المقبلة ان شاء الله ستشهد اكتمال التحليل في مختبرات الجامعة ومحاولة تطويرها وربما بناء جسر علمي بيننا وبين بعض العلماء في امريكا . والصور التي التقطها الأمير سلطان من المكوك الفضائي ستستعمل لأغراض علمية كثيرة ، منها تخطيط المدن والتحديد المبدئي لمواقع المعادن ، ولدى الجامعة أول مختبر لتطوير الصور الفضائية في العالم العربي ، وستستعمل المختبر في تحليل هذه الصور وفهمها .

★ **الاستاذ عبدالله العلي النعيم ــ أمين مدينة الرياض :**

« ان ما قام به رائد الفضاء العربي الأول والفريق العلمي السعودي قد اثبت للعالم أجمع ان في المملكة رجالا لديهم الاستعداد والقدرة على متابعة التطورات العلمية في الدول المتقدمة .

★ **صاحب السمو الملكي الأمير بندر بن سلطان بن عبدالعزيز ــ سفير المملكة العربية السعودية لدى الولايات المتحدة الامريكية :**

« ان هناك برنامجا سيتم ان شاء الله لارسال رواد فضاء سعوديين آخرين ولاجراء مزيد من الأبحاث العلمية .

★ **الدكتور علي المشاط ــ مدير عام المؤسسة العربية للاتصالات الفضائية :**

« ان التجارب المدارية لفحص القنوات القمرية الخاصة بعربسات ــ ٢ ستبدأ قريبا جدا حسب البرنامج المعد لها ، وبعد هذه التجارب سيكون القمر جاهزا للاستعمال التجاري باذن الله » .

★ **المقدم طيار عبدالمحسن البسام ــ الرائد الاحتياطي :**

« ما مشاركتنا في رحلة الفضاء الا بداية لمرحلة جديدة ويبقى على شبابنا السعودي ان يدخل هذا المجال ويواصل المسيرة ، وصعود أول رائد عربي للفضاء والبرنامج العلمي المصاحب له حافز قوي للشباب للسير على هذا النهج ليكون منهم جيل رائد يعيد للأمة العربية والاسلامية بعض امجادها التاريخية ويتابع خطواتها ويحقق آمالها المرجوة » .

★ الأمير سلطان بن سلمان (رائد الفضاء العربي المسلم الأول) :

« أنني كرائد فضاء لا أمثل المملكة العربية السعودية فحسب ، بل أمثل ٢٢ دولة عربية . ان ما حققناه من انجاز علمي يعود الى تمسكنا بالعقيدة الاسلامية والتقاليد العربية الاصيلة وعدم المجاملة على حسابها .

★ **صاحب السمو الملكي العقيد طيار ركن تركي بن ناصر بن عبدالعزيز ــ قائد قاعدة الملك عبدالعزيز الجوية بالظهران :**

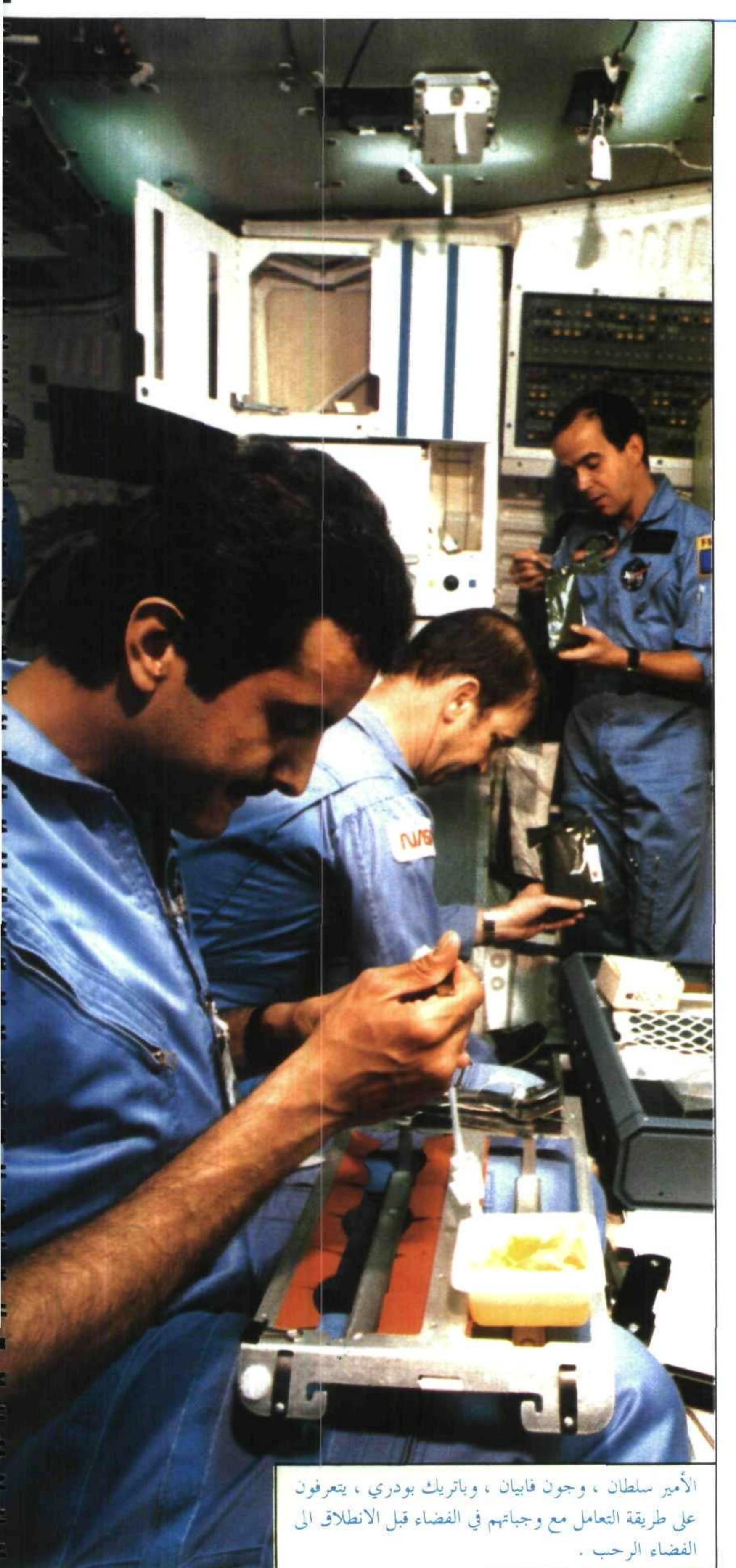
« المملكة العربية السعودية بآمالها وطموحاتها ورجالها ستطرق كل باب من أبواب المعرفة والاستطلاع كلما سنحت الفرصة وكلما واتتها الظروف ، وليس أدل على ذلك من تعملقنا في الفضاء البعيد بواسطة أحد أبناء هذا البلد العظيم ذلك هو سلطان بن سلمان أحد أبناء هذه الأمة الذي أثبت وبجدارة مقدرة أبناء هذا البلد على مواجهة أقسى الظروف والتحديات .

الأمير سلطان بن سلمان في سطور

هو نجل صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز ، أمير منطقة الرياض . ولد الأمير سلطان بمدينة الرياض ، ويبلغ من العمر ٢٨ عاما . اختارته المؤسسة العربية للاتصالات الفضائية « عربسات » للاشراف على اطلاق القمر العربي الصناعي الثاني « عربسات/ ب » ، والقيام بتجارب علمية محددة على متن مكوك الفضاء « ديسكفري » . أتم دراسته الابتدائية والمتوسطة والثانوية بالرياض ، وحصل على درجة البكالوريوس في الاعلام من جامعة دنفر بولاية كولورادو بالولايات المتحدة الامريكية . عمل باحثا في قسم الاعلام الخارجي بوزارة الاعلام في الفترة من ١٩٨٢ الى ١٩٨٤ ، كما عمل نائبا لمدير اللجنة الاعلامية الاولمبية العربية السعودية خلال دورة الالعاب الاولمبية التي أقيمت في مدينة لوس انجيلوس عام ١٩٨٤ . والأمير سلطان طيار مدني متمرس حصل على درجات متميزة في قيادة العديد من الطائرات النفاثة ، حيث سجل اكثر من ١٠٠٠ ساعة طيران . ومن هوايات الأمير سلطان التزلج على الجليد ، والغطس ، والسباحة ، وركوب الخيل ، والعَدْو ، ولعب كرة المضرب كلما سنحت له الفرصة لذلك .

عبدالمحسن البسام في سطور

هو رائد الفضاء العربي الاحتياطي في رحلة مكوك الفضاء الأمريكي « ديسكفري » . ولد الرائد طيار عبدالمحسن بمدينة عنيزة بالقصيم ويقيم حاليا بمدينة الخبر بالمنطقة الشرقية بالمملكة ، وهو متزوج وله طفلان ، بدور وعمرها ست سنوات ، وبدر وعمره سنتان . ويبلغ عبدالمحسن من العمر ٣٧ عاما ، ويحمل شهادة البكالوريوس في علم الطيران من كلية الملك فيصل الجوية بالرياض ، والتحق بعدد من المعاهد المتخصصة منها مدرسة معلمي الطيران ومدرسة تدريب المعلمين في قاعدة راندولف الجوية بولاية تكساس الأمريكية ، ومدرسة معلمي الأسلحة والتكتيكات الحربية في قاعدة ويليامز الجوية في ولاية اريزونا الأمريكية . يعمل حاليا مدربا على الطائرات المقاتلة النفاثة ، وسجل أكثر من ٢٦٠٠ ساعة طيران ، كما حصل على عدد من أوسمة الاستحقاق الدولية . وقد تم ترشيح عبدالمحسن البسام ليكون رائدا احتياطيا من قبل المؤسسة العربية للاتصالات الفضائية « عربسات » للاشراف على اطلاق القمر الصناعي العربي الثاني من مركبة الفضاء « ديسكفري ». ويزاول البسام في أوقات فراغه رياضة العدو والسباحة وصيد الأسماك ولعب الاسكواش □

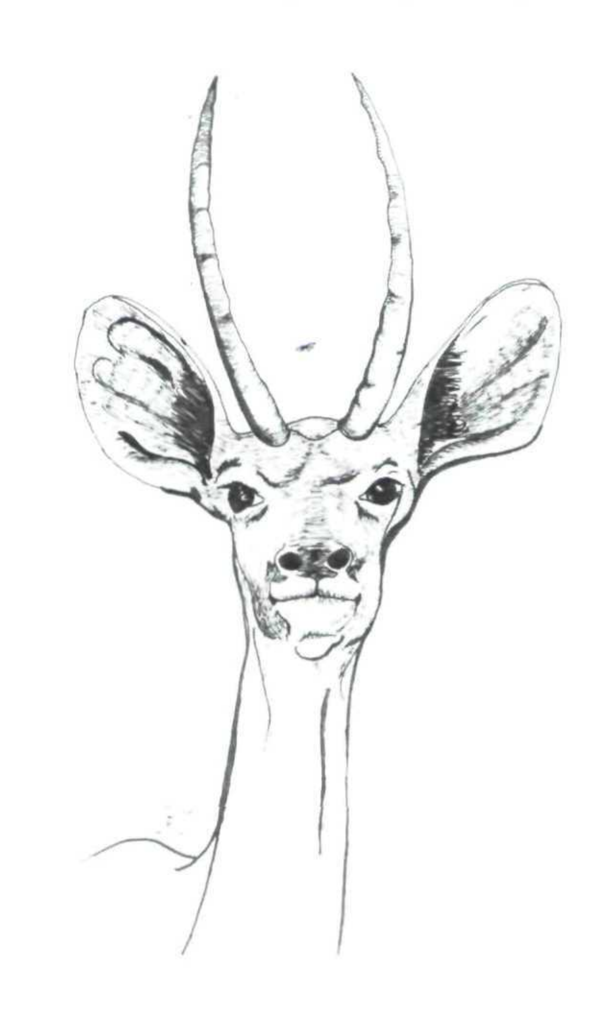


الأمير سلطان ، وجون فابيان ، وباتريك بودري ، يتعرفون على طريقة التعامل مع وجباتهم في الفضاء قبل الانطلاق الى الفضاء الرحب .

الظبي الرمادي

كتبها: روبنز كولين

ترجمها بتصرف: سليمان المشيني / الأردن



قال لي صديقي، تتعاقب الذكريات على مخيلتي كما تتعاقب أمواج البحر على الشاطىء المستلقي بدعة وهدوء، فأذكر طفولتي وما حفلت به من صعاب جعلت مني رجلا قويا يواجه الشدائد مواجهة الرجال، مواجهة الند للند، كما جعلتني انسانا ذا قلب رحيم. فقلت له، أما انّ الصعاب تعلّم الانسان القوة والكثير من العبر والعظات وتقوي عوده، فهذا أمر بديهي لا يحتاج برهانا .. أما ان الرجل القوي يحب الرحمة، فهذا ما أود الاستفسار عنه .. فقال لي وقد علت ثغره ابتسامة .. الم تر الى الأبطال، أبطال الملاكمة والمصارعة والرياضة مثلا .. قلت نعم .. فقال .. قد تدهش اذا قلت لك ان قلوبهم أرق من النسيم. فأجبت على سبيل المجاملة: ربما، فصلتك بهم أوثق من صلتي ولكنني أسألك أنت بالذات كيف تعلمت الرحمة بعد أن غدوت صاحب قوة وبأس؟ فهز رأسه، وقرب فنجان القهوة من فمه وارتشف جرعة كبيرة وقص علي القصة التالية .. قال: كنت طفلا في ناتال بجنوب افريقيا وكان من عادة الفلاحين هناك، أن يخرجوا للصيد مرة في كل عام، ومعهم مئة من المطاردين بالحراب عدا كلاب الصيد، وكانوا يتجهون جميعا الى أحد الوديان الكبيرة حيث تأوي الوعول والغزلان، ولكنهم مشوقون أبدا لصيد الظبي الرمادي، الذي تميّز بلحية بيضاء ناصعة نادرة الرواء .. وذلكم الظبي رائع وعنيف في آن واحد، عنيف اذا جرح .. أو أصيب قرنه بأذى .. والحقيقة ان منظره كان يفتن كل صياد تقع عينه عليه. وتنهّد صديقي .. وجرع جرعة أخرى من القهوة ليستأنف الحديث بقوله: أجل لم يفلح أحد في صيده فقد كان يهرب كالبرق من الصيادين سنة اثر أخرى .. والواقع انني عندما أبصرته للمرة الأولى كنت في العاشرة من عمري .. واذكر أنه كان يتهادى في مشيته وله قرنان طويلان حادان وجلد رمادي أخّاذ تتخلله بقع بيضاء .. فأدركت لماذا غدا هذا الظبي قبلة نظر الصيادين، ومذ ذلك الحين ورسمه لا يفارق خاطري .. ثم غدوت أعتقد ان الطريق الى الرجولة تعترضه عقبة واحدة هي اصطياد هذا الظبي النادر .. وأصر والدي بعد أن عرف رغبتي، على أن أبقى بعيدا عن ميدان الصيد، حتى أبلغ السادسة عشرة من عمري ولهذا بقيت قلقا حائرا .. أخشى أن

يسبقني الصيادون الى اقتناصه، ولكنه ظل طليقا .. لم تمسه الحراب والنار بأذى وغدوت أسمع القصص الكثيرة عن مغامرات هذا الظبي وعن حيرة أبرز الصيادين معه. .. وكانت هذه القصص تسرد في المساء فلم يكن للفلاحين من حديث سوى الظبي الشارد، وكيف تبعوه وطاردوه وضيّقوا عليه الخناق فاذا به يقفز عاليا وينجو من المصير المحتوم .... وفي هـذه اللحظـة أحسست

بالبهجة تغمر جوانحي اذ اقترب الوقت الذي سأكون، حسب رأي والدي، قد بلغت فيه سن الرشد في الصيد. وسكت صاحبي فقلت أكمل القصة: وجاءت اللحظة الحاسمة لحظة خروجك الى الميدان. فقال: وحانت الفرصة فحاولت الخروج وحدي الى الوادي مع طلوع الفجر ولكن أبي منعني وأشار اليّ أن أتناول طعامي أولا وقال وهو يغمز بعينه .. ان الظبي سينتظرك هناك فلا داعي للتسرع .. وخرجنا في الصباح الباكر الى الوادي وانطلق المطاردون الى أعالي الصخور، أما نحن، الصيادين، فقد احتللنا مراكزنا الأمامية، وكان من نصيبي الوقوف قرب مجرى النهر .. وفي لحظات تواريت وراء الأحراش ووضعت بندقيتي في فسحة بين الأغصان وأشرفت على الوادي .. ومضى وقت طويل من السكون، وفجأة ترددت صرخـات المطاردين وأصوات الحراب والعصي وهي تقصف أوراق الشجر، ونباح الكلاب وسنحت غزالة مرتعدة أمامي وأخذت تعدو ثم تبعتها أخرى ولكني تركتهما تمران دون أن أطلق النار عليهما ثم ساد بعد ذلك صمت عميق .. وكان يدور في مخيلتي هذا السؤال: ماذا حدث للظبي صاحب اللحية البيضاء هل أفلت أم أنه سقط قتيلا وأصابته النيران التي دوّت في جنبات الوادي .. وبينا أنا في حيرة من أمري تنبهت على شجرة قريبة مني تهتز فتطلعت فاذا بي أراه .. أرى الظبي الرمادي، الضالة المنشودة، صاحب اللحية البيضاء على مدى خمسة أمتار يخطو هادئا، ويتلفّت يمينا وشمالا يختبر الطريق .. قبل أن يفر هاربا. وكان علي أن أصوب اليه فوهة بندقيتي فيصبح جثة هامدة .. فانه الآن بين يدي على بعد بضعة أمتار .. ووقف الظبي ساكنا .. كأنه ينتظر حركة صغيرة من اصبعي فوق الزناد .. حركة واحدة .. وأصبح صائدا لا نظير له .. ولكن شيئا أمسكني عن اطلاق النار .. فقد أدار الظبي رأسه الى الناحية الأخرى ورفع أذنيه ليلتقط

نباح الكلاب وراح يفتح أنفه المبلل ليشم رائحة الصيادين .. كان خائفا وكانت عيناه تلمعان وأحسست أنه يتجه نحوي .. وكأنه يلوذ بي.

صاحبي حديثه مبهور الأنفاس .. لقد رأيت الكبرياء والوقار والجلال تتجلى على جسمه الجميل وتأكدت أني لا أستطيع أن أرديه .. وهكذا ظل لحظات لا يتحرك الى أن حمل النسيم رائحة جسمي وألقى بها عند أنفه فوثب بصورة خاطفة .. وانطلق بعيدا بعيدا عن الوادي والصيادين وبقيت في مكاني صامتا لا أتحرك، مذهولا مفتونا بما رأيت.

وعاد أبي عندما انتهى الصيد الى حيث أقف .. وأفرغت ما تبقى معي من « الخراطيش » ووضعته في حزامي، ويبدو أن أبي فطن الى ما فعلت ورأى الخرطوش كاملا فقال: يظهر أن الحظ لم يحالفك هذه المرة .. فهززت رأسي. وعاد أبي يقول:

لقد شاهد الصيادون الظبي الرمادي، يتجه الى هذه الناحية ولكنه اختفى .. فنظرت الى الأرض فتطلع اليّ والدي بنظراته الحادة وقد ارتاب في صمتي وهدوئي ورمى ببصره الى الأرض فرأى آثار أقدام الظبي قريبة جدا من المركز الذي كنت أحتله .. فتنهد ولم ينبس ببنت شفة .. ثم سار وسرت الى جانبه حسير الطرف، فقد ظننت أني صغرت في عيني أبي ولم أحقق الأمل الذي كان يعقده عليّ، وكنت أفكر، ونحن في طريق عودتنا، في الظبي الرائع ذي اللحية البيضاء الذي نجا من الصيادين هذا العام أيضا، وراح يجمع الظبا ويسير في طليعتها آمنا لنلقاه مرة أخرى في السنة المقبلة. ولا أكتمك فقد سعدت بهذه الفكرة ولكن الذي كان يضايقني صمت أبي الذي قطعه أخيرا بسؤاله: اصدقني .. ماذا حدث يا بني؟ وانعقد لساني واعتراني الخجل فلم أدر ما أقول .. وآثرت أن أصف له الظبي وأحدثه عن جماله وكبريائه .. وان نفسي لم تطاوعني أن أدفع ذلك الثمن الفادح، وأن أهدر تلك الروعة .. لأثبت أني صياد ماهر. وسكت والدي لحظة .. ثم قال بصوت رزين: يا بني لقد تعلمت اليوم شيئا .. شيئا غاليا يعيش لسنوات طويلة .. كثيرون يموتون دون أن يعرفوه .. ووضع ذراعه بحنو حول عنقي وقال بنبرات رخيمة: لقد تعلمت اليوم .. المحبة والرحمة .. ولا تنس أن القوي الشجاع .. تصهر قلبه المحبة وتغمر فؤاده الرحمة □

الشوق العائد

ابراهيم أحمد الشنطي / هيئة التحرير

طَرَقَ الهوىٰ في ذاتِ يوم بابيه … وَرَنا اليَّ ومدَّ كفّاً حانيهْ
وبكىٰ فقرَّحَ بالبُكا أجفانهُ … وأصاخَ يسمعُ ما يكونُ جوابيَهْ
فأثارَ فيَّ خواطراً هَدهدتُها … من رُبعِ قَرنٍ مع شتّات مآسيهْ
فمضيتُ نحوَ البابِ مُتئدَ الخُطىٰ … رَجعُ الصّدىٰ في القلبِ نارٌ واريَهْ
ووقفتُ عن بُعْدٍ أسائلُ طارقي … وكأنّما قلبي أصيبَ بغاشيَه :

* * *

يا من طرقت عليَّ باب سكينتي … هوِّن بربّكَ قد سلوتُ شبابيهْ
قد كانت الحسناءُ شُغلاً شاغلاً … والقلبُ صَبٌّ والحياةُ مواتيهْ
كانت ليَ الدُّنيا وكنتُ لها الفتىٰ … ولّىٰ الشبابُ فلا تسل عمّا بيَهْ
فارجع فديتُكَ ما لديَّ من الضنا … يكفي ، وعندي منهُ ألفا خابيَهْ

* * *

وانسابَ عبر البابِ همسٌ دافيءٌ … هزَّ العواطفَ في العروقِ الواهيهْ
ملأ الدُّنىٰ بالشوق حتى خلتني … فوقَ السّحاب معَ النُّجوم الزاهيه :

* * *

إني وقفتُ ببابِ جودك سيِّدي … والخيرُ طبعٌ في النفوسِ العاليهْ
إن شِئتَ تُدْخلني لبيتكَ راضياً … فتعيشُ نفسي في رحابكَ راضيهْ
أو شِئتَ ، ارجع خائباً ، لكنني … حتماً سأقضي في الفلاة النائيهْ
وارفقْ بنفسك ، لا تُكابرْ سيِّدي … وارحمْ فديتُكَ ما الحياةُ بباقيهْ

* * *

حنَّ الفتىٰ للحبّ إذ سمعَ الهوىٰ … يَروي حكايات الليالي الخاليهْ
ما عادَ يقوى أن يصمّ وينثني … وهو الذي للحُبِّ أذنٌ صاغيهْ
فهوى على البابِ الموصّد دونه … ورماهُ ما طاقت لديه العافيهْ
وتصافحَ الشوقان : شوقٌ راعفٌ … دام ، وآخر عارمٌ كالرابيهْ
وتعانقا والشمسُ في رَأدِ الضُحىٰ … جذلىٰ لحُبٍّ راحَ ينمو ثانيهْ



الفكاهة عند العرب

بقلم: الأستاذ عبدالله السيد شرف / القاهرة

مخطئ من يظن أن العرب كان جلّ همهم البطش والاغارة وانه لم تكن لهم معرفة بالفكاهة والضحك .. فالواقع انهم كما عرفوا فنون القتال وبرعوا فيها عرفوا ايضا الفكاهة وتفننوا في الضحك رغم قساوة المناخ والتجهم الجغرافي ، حتى أضحكوا الجبال الشامخة من حولهم وتبسمت تحت أقدامهم حبات الرمال الساخنة فهانت المصاعب .

لم يكن العربي متجهماً أو عابساً ، ولم يتكالب على الحروب حبا في إراقة الدماء او لنزعة شريرة متأصلة في نفسه .

وما أبتغي الشر والشر تاركي
ولكن .. متى أحمل على الشر أحمل

بل انهم اتسموا بخفة الظل ، والطيبة والذكاء اللماح ، وسرعة البديهة ، وكانت لهم التعبيرات الباسمة ، والطرائف المضحكة ، وإيماناً منهم بالضحك قالوا عند المدح « ضحوك السن ، بسّام العشيات ، هش الى الضيف .. وعند الذم . هو عبوس الوجه جهم المحيا ، كريه المنظر ، حامض الوجه »[1] . فالابتسام والضحك من الصفات التي يمدح صاحبها ، أما التجهم والعبوس فصاحبهما مكروه مذموم واذا كانت الفكاهة والضحك ، والمرح والمزاح « إنما تصدر عن تلك الطبيعة البشرية المتناقضة التي سرعان ما تمل حياة الجد والصرامة والعبوس فتلتمس في اللهو ترويحا عن نفسها ، وتبحث في الفكاهة عن منفذ للتنفيس عن آلامها ، وتسعى عن طريق النكتة نحو التهرب من الواقع الذي كثيرا ما يثقل كاهلها »[2] . فالعربي أحوج ما يكون الى الفكاهة ليشيع فيما حوله البهجة ، وليخفف عن نفسه وقع الهموم الحياتية المحيطة به ، والمتمثلة في شظف العيش ، وقلة الموارد .

حتى اذا جاء الاسلام بنوره الساطع ، وجدوا الرسول القدوة ، صلوات الله وسلامه عليه ، يبتسم ، ويدعوهم الى ترويح القلوب « روحوا القلوب ساعة بعد ساعة » . وهذا هو القرآن الكريم يصف أهل الجنة بالبشر والسرور .. اما العبوسة .. فهي صفة الشذوذ الدخيلة على الصفة الانسانية .. وقد جاء في الآية الكريمة من سورة الانسان ﴿ **إنا نخاف من ربنا يوماً عبوسا قمطريرا** ﴾ — أي شديد العبوسة[3] . أما أهل الجنة .. فهم في شغل فاكهون .

وقد ضحك الصحابة واشتهر منهم ، ومن التابعين ، نعيمان ، وابن ابي عتيق ، وابان بن عثمان . وابن سيرين رضي الله عنهم . وقد بلغت الفكاهة أوجها في العصور التالية ، وانتشرت الأبيات الشعرية الساخرة في العديد من القصائد ومن منا لا يضحك امام بيت أبي نواس .

قــل لمن يبكــي على طلــل درس
واقفــاً .. ما ضــرّ لو كان جلــس

وكأني بالشاعر وقد أشفق على من يبكي واقفاً من ان يجمع على نفسه مشقة الوقوف ، وحزن الفؤاد . فكتب بيته السابق طالبا منه الجلوس ، خاصة وان الجلوس لا يقيد حركة الدموع .. فلماذا لا يريح أقدامه ، على الأقل ، ثم يطلق للدمع العنان !

يقول « برجسون » ان الانسان هو الحيوان الذي يضحك . ويقول الدكتور زكريا ابراهيم : « الانسان هو الحيوان الوحيد الذي يعرف النكتة ويستخدم الفكاهة ويتفنن في خلق أسباب الضحك ، ويستعين بسلاح الدعابة والسخرية في تعامله مع الآخرين »(٤) . وعن اثر الضحك على الشخص يقول « مكدوجال » : « ان للضحك من الاثار الفسيولوجية ما لا يقل أهمية عما له من آثار سيكولوجية . وذلك من شأنه ان يرفع من ضغط الدم . فيرسل الى الرأس والمخ سيلا دافقا من الدم ، كما يدلنا على ذلك احمرار وجه الشخص الطروب الذي يضحك من أعماق قلبه »(٥) .

ولا شك ان الانسان يشعر بالحيوية كلما ضحك ، وبالسعادة والبشر كلما صادف وجها بشوشا مبتسما ، وعلى العكس تماماً حينما يكتئب أو يصادفه وجه عابس متجهم . وقد عرف عن العرب انهم أصحاب ذكاء وسرعة بديهة وهما من الصفات التي يتميز بها الانسان الظريف ، ومن هنا كانت معرفتهم بالفكاهة وانفعالهم بها على اختلاف انواعها . فالمعروف ان الفكاهة انواع .. منها البريئة والمغرضة ، والانتقادية ، والعدوانية ، والسياسية ، وفكاهة الرد الحاضر ، الى آخر ما ذكر من انواع .. « على أن الفكاهة ليست هزلا صرفاً يخلو من جد الحياة .. ولو قد ذهبنا الى تصنيف النكات والفكاهات من حيث موضوعها وحجمها ، لوجدنا ان الفكاهات الانتقادية هي الاولى .. وكثيراً ما تستعمل الفكاهة للتنفيس عن الكبت والتعبير عما يشغل الناس ، وعندئذ تصيب الفكاهة وتصل الى ما لا يصل اليه الجد والزماتة »(٦) ، والمتطلع في مصادرنا الأدبية ، يرى ان للعرب معرفة بكل هذه الأنواع المختلفة قبل ان توضع لها الأسماء والتعريفات .. فمن الفكاهة الانتقادية، والمغلفة بالرمزية أيضاً ما رُوِيَ :

« خطبت بومة الموصل لابنها بنت بومة البصرة ، فشرطت عليها مائة ضيعة خراب فقالت لها : لا أقدر .. ولكن ان دام ملك مولانا ، أطال الله في عمره ، سنة أخرى وفيت لك بطلبك »(٧) ، ومن الفكاهة السياسية « جيء بأعرابي الى السلطان ومعه كتاب قد كتب فيه قصته وهو يقول : هاكم اقرؤوا كتابيه . فقيل له: هذا يقال يوم القيامة. قال: هذا والله شر من يوم القيامة .. ان يوم القيامة يؤتى فيه بحسناتي وسيئاتي .. وأنتم جئتم بسيئاتي وتركتم حسناتي »(٨) . وكان للظرف وسرعة البديهة دور كبير في انقاذ المتمتع بهما من بطش الخليفة ، أو النجاة من خطر محدق به ، ولولا الظرف .. لما استطاع ان ينجو بنفسه ، وينقذ حياته . « خرج الحجاج متصيداً بالمدينة فوقف على اعرابي يرعى إبلا له . فقال له : يا اعرابي .. كيف رأيت سيرة اميركم الحجاج ؟ .. فقال له الاعرابي : غشوم ظلوم .. لا حياه الله ! .. فقال : فلم لا شكوتموه الى أمير المؤمنين : عبدالملك ؟ .. قال : فأظلم وأغشم ! .. فبينما هو كذلك إذ أحاطت به الخيل فأومأ الحجاج الى الاعرابي فأُخِذ وحُمِل .. ولما صار معه قال : من هذا ؟ .. قالوا له الحجاج .. فحرك دابته حتى صار بالقرب منه ثم ناداه : يا حجاج .. قال : قل ما تشاء يا اعرابي .. قال : السر الذي بيني وبينك أحب ان يكون مكتوماً .. ! فضحك الحجاج وأمر بتخلية سبيله »(٩) ، ولعل أي تصرف آخر غير هذا ، لذاق الرجل بطش الحجاج .

ولا يقف بنا الأمر عند هذا الحد ، فما زالت الكتب تمدنا بفيض زاخر من الفكاهة على اختلاف انواعها ، فمن الفكاهة الانتقادية أيضا ما روي : « مر الشعبي بإبل قد فشا فيها الجرب فقال لصاحبها أما تداوي إبلك ! فقال إن لنا عجوزا نتكل على دعائها !.. فقال الشعبي : اجعل مع دعائها شيئا من القطران »(١٠) .

أما فكاهة الرد الحاضر فهي كثيرة نذكر منها : « مر بالشعبي حمال على ظهره دن خل ، فلما رآه وضع الدن وقال : ما كان اسم امرأة ابليس ؟ فقال الشعبي ذاك نكاح ما شهدناه »(١١) . والأمثلة كثيرة ومتنوعة ولا يمكننا ان نستعرض معا كل انواع الفكاهة في هذه

الكلمة الصغيرة . لكن .. بقيت حكاية مضحكة ساقها النويري ترجع الفكاهة فيها الى الظرف وسرعة البديهة .. يقول النويري : « إن أعرابيا مر بآخر فقال : من اين أقبلت يا ابن العم ؟ قال من الثنية . قال فهلا أتيتنا منها بخبر .. قال : سل عما بدا لك .. قال كيف علمك بيحيى ؟ قال أحسن العلم .. قال هل لك علم بكلبي نفّاع .. قال حارس الحي قال فبأم عثمان !. قال بخ بخ .. ومن مثل ام عثمان .. لا تدخل من الباب الا منحرفة بالثياب المعصفرات .. قال : فبعثمان ؟ قال وابيك فانه جرو الاسد ويلعب مع الصبيان وبيده الكسرة .. قال : فبجملنا السقاء .. قال : ان سنامه ليخرج من الغبيط .. قال فبالدار .. قال وأبيك انها لخصيبة الجناب ، عامرة الفناء .. ثم قام عنه وقعد ناحية يأكل فلا يدعوه . وليسمح لي القارىء بأن أقف معه امام ما ذكر قبل ان نستطرد في سرد الحكاية .

الملاحظ ان الرجل يتمتع بالذكاء .. فاجاباته كلها تكتسب صفة العموم ، ولا تدل على ان للرجل معرفة اكيدة بما سئل عنه .. بل هي كما قلنا اجابات عامة يبدو من خلالها ان الرجل بارع الذكاء ، فقد استأنس الآخر بهذه الاخبار الطيبة ، ربما ليترافقا في السفر ..

إلا أن الرجل السائل انصرف الى الطعام ، وضن على الرجل بلقيمات تسد جوعه .. وطبعا لم يعجب هذا التصرف الاعرابي الذكي فرأى ان يسترد هذه الأخبار الطيبة من هذا البخيل .. ونعود الآن الى بقية الحكاية .

ثم قام عنه وقعد ناحية يأكل فلا يدعوه .. فمر كلب فصاح به وقال يا ابن عم .. أين هذا الكلب من نفاع ؟ .. قال الاعرابي الظريف : يا أسفا على نفاع . مات !.. قال : وما أماته ؟ .. قال : أكل من لحم الجمل السقّاء فاغتص بعظم منه فمات ! قال إنا لله .. أوقد مات الجمل . فما أماته ؟.. قال : عثر بقبر ام عثمان فانكسرت رجله !. قال : ويلك .. أماتت أم عثمان !.. قال : أي والله أماتها الأسف على عثمان !. قال ويلك أمات عثمان ؟ قال : أي وعهد الله .. سقطت الدار عليه !

الاعرابي بطعامه ونثره ، واقبل ينتف لحيته ويقول : الى اين اذهب ؟.. فيقول الآخر : الى النار .. واقبل يلتقط الطعام .. ويأكله ويهزأ به ويضحك ويقول لا أرغم الله إلا أنف اللئام[١٢] .

لا أعتقد الآن ان الحكاية في حاجة الى تعليق .. فذكاء الرجل واضح ، وظرفه جلي ، وخفة ظله ظاهرة ، وقد مكنه هذا من الحصول على الطعام دون عناء يذكر .. اما الآخر فقد جره بخله الى سماع هذه الانباء السيئة ، التي أعتقدُ ان الظريف اخترعها لينتقم منه .

ثمة سؤال يطرح نفسه علينا الآن .. ما هو موقف الأديان عموما .. والاسلام خاصة من الفكاهة والضحك ؟ .

أما اليهودية فالمتأمل في التوراة يجد انها خلت من كل روح فكاهية .. اما في المسيحية .. فانه لم يذكر عن المسيح عليه السلام انه ضحك يوما في حين نص الانجيل على انه بكى ثلاث مرات .. ولئن كان القديس بولس قد أوصى المسيحيين في إحدى رسائله بأن يفرحوا في كل حين ، إلا أنه هو نفسه كما قال ، « رينان » ، لم يكن يعرف حتى لغة الابتسام[١٣] .

أما الاسلام .. فهو الدين الوسط .. وهو دين الفطرة .. ولهذا فهو لا يحرم الضحك ، ولا يمانع في الابتسام .. لكن الضحك المباح في الاسلام مشروط بعدم الاضرار بالآخرين ، او الاساءة اليهم ، او السخرية منهم ، كما ان الافراط مرفوض ، وقد نبه الرسول ﷺ الى هذا فقال : إياك وكثرة الضحك ، فانه يميت القلب . فاذا ما التزمنا بعدم الاضرار بالآخرين .. او الاساءة اليهم ، أيا كان حجم الاساءة ، فليس علينا من حرج في أن نبتسم ونضحك ، فلا شك ان الضحك بالاضافة الى انه ترويح للنفس ، بمثابة الوقود الذي يدفع الانسان للسير في طرائق الحياة منشرح الصدر ، يحدوه التفاؤل ، ويظلله البشر ، ويرافقه السرور . ولهذا .. فقد عرفه العرب .. فضحكوا حتى ذابت الهموم ونسيت الاحزان .



صناعة الورق بين الماضي والحاضر

أسهم الورق في إثراء حياة الإنسان حضارياً وإنسانياً وساعد في حفظ التراث الإنساني وجمع المعلومات وتخزينها في أسفار عديدة لتكون في متناول الأجيال القادمة للتعرف إلى الحضارات والإنجازات التي تحققت في الماضي، والحفاظ على ما يستجد من انجازات في الحاضر والمستقبل.

يجمع الكثير من المؤرخين على ان الشعب الصيني كان أول الشعوب التي عرفت الورق ، ويرجع ذلك الى القرن الثاني قبل الميلاد . وقد اصبح الورق في متناول معظم اقطار العالم في منتصف القرن الثامن الميلادي . وفي عام ٧٥١م ، كان العرب قد وصلوا في فتوحاتهم الى سمرقند ، شن الصينيون هجوما على سمرقند ، غير ان حاكم المنطقة العربي آنذاك تمكن من دحر هذا الهجوم ، وخلال عملية ملاحقة فلول المنهزمين ، القى العرب القبض على عدد من الاسرى الصينيين كانوا من ذوي المهارة والخبرة في صناعة الورق . وقد وضع هؤلاء الاسرى مهارتهم وخبرتهم في خدمة حكامهم الجدد . ومنذ ذلك التاريخ برزت صناعة العرب للورق وانتشرت بسرعة في جميع المناطق التي كانت خاضعة لنفوذهم في ذلك الحين .

وتشير المراجع التاريخية الى ان معرفة اوروبا لصناعة الورق تعود الى القرن الثاني عشر الميلادي ، وكان ذلك في اسبانيا عن طريق عرب المغرب آنذاك وكان المقر الرئيسي لصناعة الورق في مدينتي « فلنسيا » و « توليدو » . اما بالنسبة الى ايطاليا فتعود صناعة الورق فيها الى العرب خلال فترة حكمهم لصقلية .

بيد ان أقدم وثيقة كتبت على الورق كانت وصية أحد ملوك صقلية في العام ١١٠٢م ، وهناك وصايا لملوك صقليين آخرين سجلت في القرن الثاني عشر الميلادي . كما ان هناك وثيقة مدونة على الورق في جنيف يرجع تاريخها الى عام ١١٥٤م .

أما بريطانيا فقد عرفت صناعة الورق في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي ، وكانت الأوراق المصنوعة في بريطانيا تماثل في جودتها تلك المصنوعة في اسبانيا . وبحلول القرن الخامس عشر الميلادي كانت هناك عدة مصانع لانتاج الورق في بريطانيا لتلبية احتياجات البلاد المتزايدة من الورق الذي أشتد الاقبال عليه بصورة مطردة .

وفي امريكا جلب الرواد الأوائل الورق معهم من بلادهم التي قدموا منها . وقد انشىء أول مصنع للورق هناك عام ١٦٩٠م في مدينة « جيرمان تاون » بولاية بنسلفانيا . وفي عامي ١٧١٠ و ١٧٢٩م ، انشىء مصنعان آخران لصناعة الورق . وبحلول عام ١٨١٠م كان هناك أكثر من مائتي مصنع للورق تنتشر في الولايات المتحدة ، وقدر انتاجها في ذلك الحين بما قيمته حوالي مليوني دولار .

وفي مصر كان نبات البردي أو السمار ، وهو ينبت في دلتا النيل ومصر العليا بغزارة ، يستخدم كغذاء وفي صنع الحبال ، وعلى نطاق واسع في صناعة ورق الكتابة . وكان ذلك يتم بأخذ اللب بطوله من قلب عيدان البردي ، وتغطية اللب الطولي بطبقة أخرى من اللب توضع بالعرض ثم الطرق على الطبقتين بمطرقة ذات رأس خشبي . وقد نجم عن هذه العملية أول ورق للكتابة عرفت في التاريخ ، ويرجح ان تاريخ ذلك يرجع الى حوالي ٣٠٠٠ عام قبل الميلاد .

أما تاريخ صناعة الورق في اليابان فيعود الى حوالي ١٣٠٠ عام مضت ، وهي من الصناعات العريقة التي ازدهرت هناك وتجمع بين الحديث من المعدات المتطورة والقديم من الاساليب والطرق اليدوية التقليدية المعروفة منذ أكثر من الف عام لكنها تعطي منتوجا من الورق على قدر عال من الجودة . ويوجد في اليابان عدد كبير من المصانع المتخصصة بانتاج الورق أكبرها شركة « اوجي لانتاج الورق » ، حيث يجري انتاج لفائف من ورق الصحف يبلغ عرض الواحدة منها ١,٦٢ مترا وطولها ٦٨٢٥ مترا .

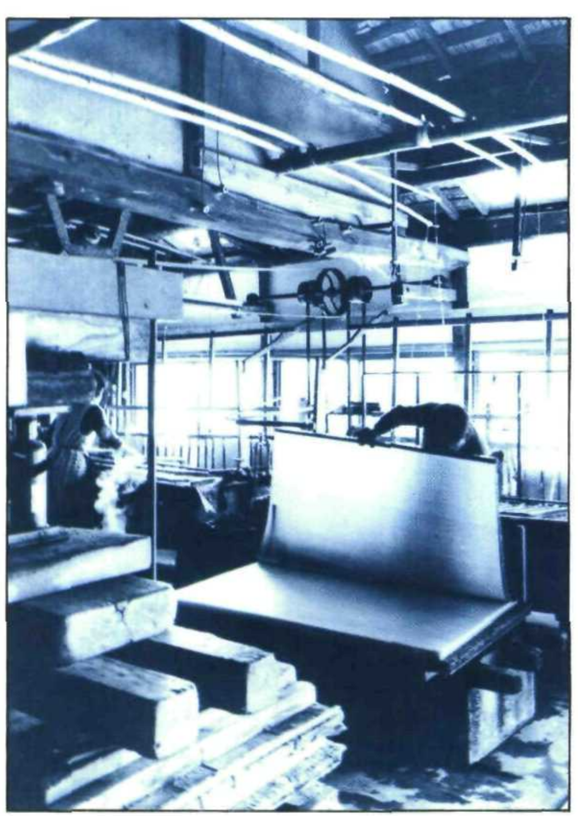
١ ــ احدى آلات انتاج لفائف ورق الصحف الضخمة في معمل شركة « اوجي » لانتاج الورق في اليابان .

٢ ــ فني في صناعة الورق يضع لفائف الورق الحديثة الصنع فوق بعضها ، ويعدها للمرحلة الأخيرة من عملية التصنيع اليدوي .

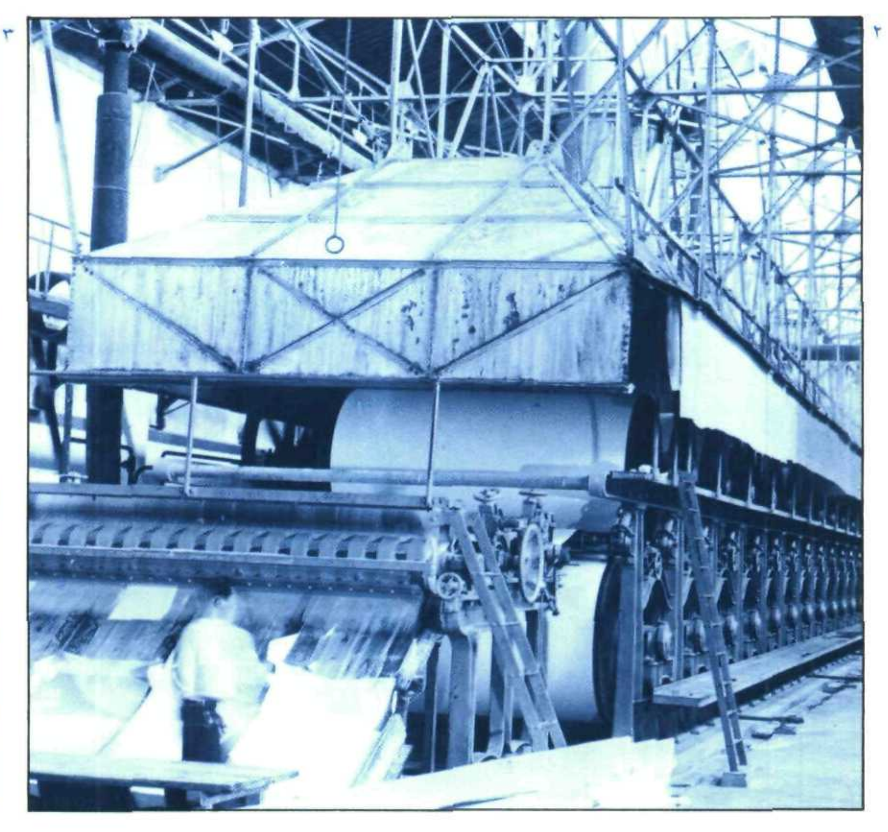
٣ ــ آلة عملاقة لصناعة الورق في أحد المصانع اليابانية .

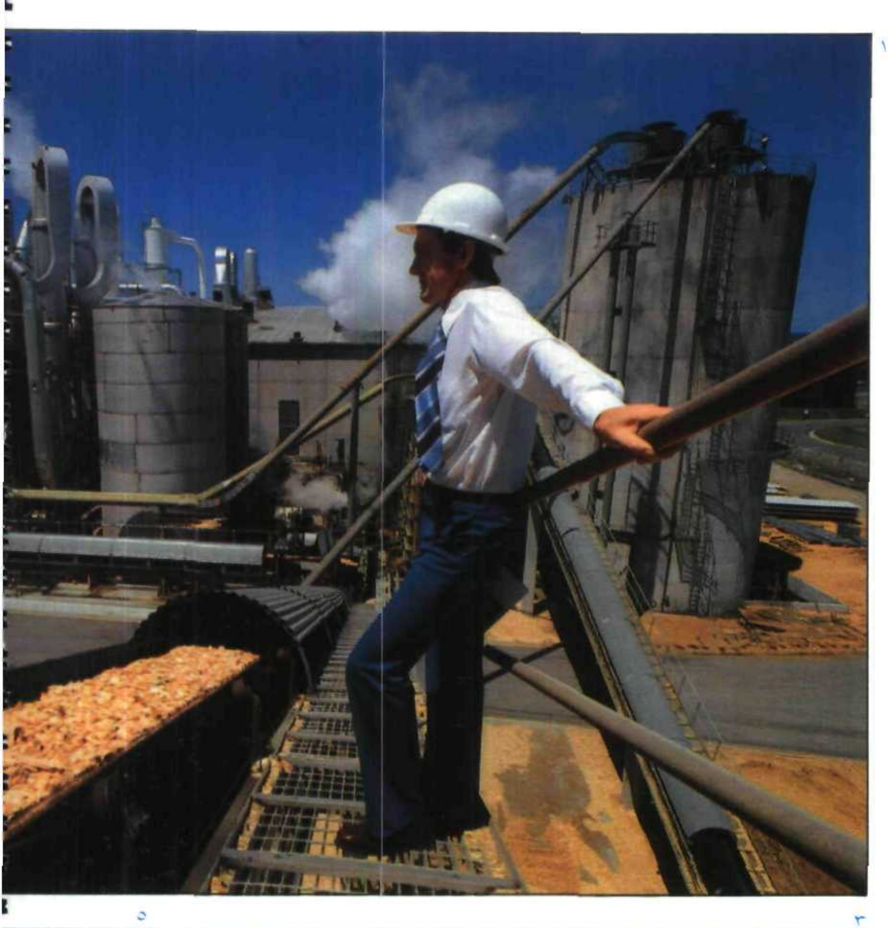
١

٣

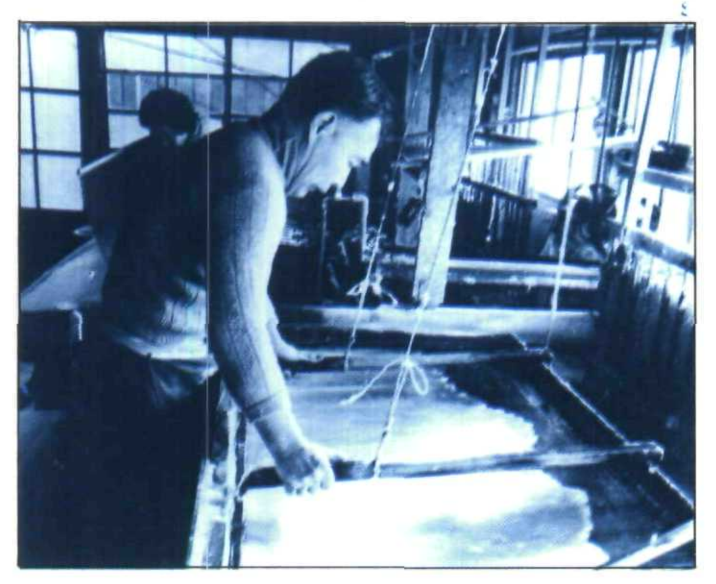


٢











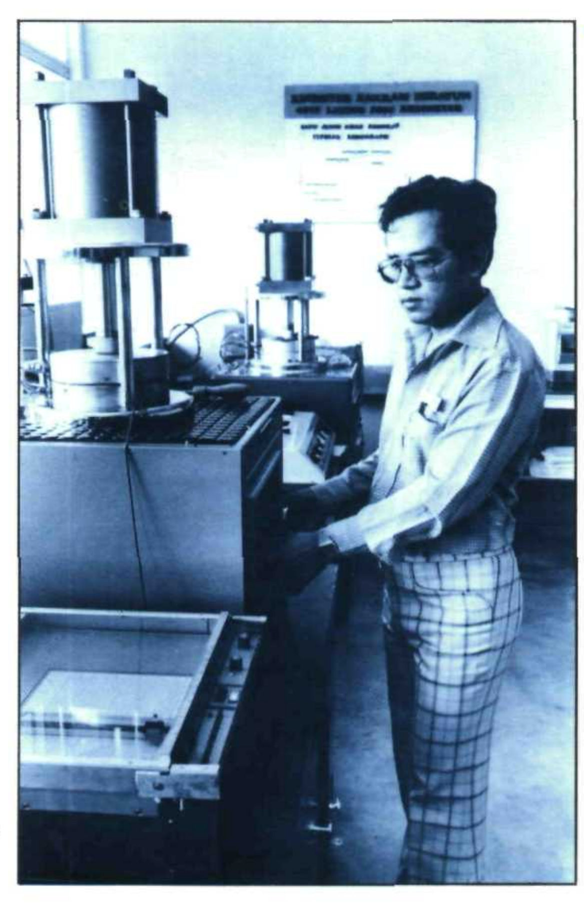
وتكفي اللفافة الواحدة لطباعة أكثر من ثلاثة الآف نسخة من صحيفة عدد صفحاتها ٣٢ ورقة. ويبلغ انتاج المصنع الاجمالي من الورق حوالي ٤٧٠٠ لفافة من ورق الصحف الكبيرة يجري شحنها وتوزيعها على دور نشر الصحف في اليابان . ويستخدم المصنع حوالي مليوني متر مكعب من المواد الخام في العام ، وتشكل رقائق الخشب حوالي ٨٠ في المائة منها . كما ان رقائق الخشب المستوردة من نيوزيلندا والولايات المتحدة الامريكية تشكل حوالي ٤٣ في المائة من مجموع المواد الخام المستخدمة في هذه الصناعة .

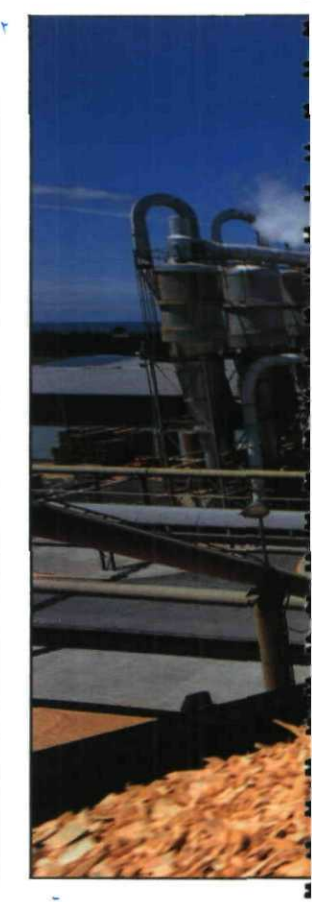
وتملك شركة « اوجي » لصناعة الورق مشروعا مشتركا في نيوزيلندا يقع على بعد ١٦ كيلومترا الى الشمال من ميناء « نابير » . وتنتج الطواحين هناك حوالي مائتي الف طن من لب الخشب وتسعين الف طن من رقائق الخشب في العام لتصديرها الى اليابان . وتقوم الشركة حاليا بتحويل مصنعها لانتاج اللب ليصبح أكبر معمل لانتاج لب الخشب في العالم . وتؤمن هذه الحلقة بين نيوزيلندا وشركة « اوجي » للورق حوالي ٢٥ في المائة من لب الخشب الذي تستخدمه الشركة . كما تقوم الشركة ايضا بزيادة وارداتها من رقائق الخشب من استراليا ، كما تخطط لانتاج ورق للمطبوعات في المنطقة الشرقية بكندا خلال العام الحالي بالاشتراك مع احدى الشركات الامريكية لانتاج الورق .

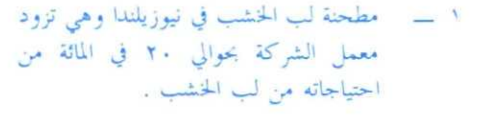
ان هذا الاتجاه نحو تطبيق التكنولوجيا الحديثة في انتاج الورق ، أمر طبيعي بالنسبة لبلد كانت وما زالت تصنع منتجات من الورق عالية الجودة منذ الأيام الأولى عندما كانت دول اوروبا تجهل فن هذه الصناعة . كما ان نوع الورق الذي كان ينتجه الحرفيون الفنانون منذ أكثر من الف عام ، ما زال محفوظا حتى يومنا هذا .

أشهر مناطق صناعة الورق في ذلك الحين كانت تقع بالقرب من « ايدو » ، طوكيو الآن . وقد تطورت هذه الصناعة هناك لكونها تبعد حوالي ٨٠ كيلومترا

فقط عن المركز الثقافي في العاصمة . كان ذلك منذ حوالي ١٣٠٠ عام حين امتدت صناعة الورق من مدينة « كايوتو » ، الى المقاطعات المجاورة ، وكان القنب خلال تلك الفترة من أهم المواد الخام المستخدمة في صناعة الورق . غير ان صناعة الورق في اليابان قد حققت في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي تقدما ملحوظا في مستواها الفني والانتاجي . وفي تلك الفترة كانت الثقافة محصورة في الطبقة الارستقراطية فقط . وخلال الفترة ما بين عام ١٣٩٢م وعام ١٣٣٣م، أي عندما انتقلت مقاليد القوة المركزية من طبقة المنتفعين الى فئة الساموراي ، اتسع نطاق التعليم فازداد الطلب على الورق . وقد رافق هذا التحول ، تطور كبير في فن صناعة الورق ولا سيما في الفترة ما بين عام ١٣٩٢م وعام ١٥٧٣م حيث قامت شركات عديدة لانتاج الورق .







١ — مطحنة لب الخشب في نيوزيلندا وهي تزود معمل الشركة بحوالي ٢٠ في المائة من احتياجاته من لب الخشب .

٢ — فني في أحد مصانع الورق يتولى مهمة ضبط الحرارة في أحد افران غلي لب الخشب تمهيدا لاعداده لصناعة الورق .

٣ — شاحنات كبيرة محملة بجذوع الاشجار في طريقها الى المعمل لطحنها وأخذ اللب ، أحد الروافد الرئيسية لصناعة الورق .

٤ — أحد الحرفيين الفنيين في صناعة الورق بالطرق اليدوية يضع مزيجا من القنب والماء في أحد المناخل الدقيقة حيث ينساب الماء الى الخارج تاركة وراءها صحيفة من الورق .

٥ — لب الخشب بعد عملية غسله وهو يبدو كحبال من المعكرونة ولكنه بواسطة الأيدي الماهرة سيصبح من أجود أنواع الورق .

٦ — مجموعة من ربات البيوت يتعلمن فنون صناعة الورق في معهد « اوريجامي » الذي يهدف للمحافظة على هذه الحرفة الفنية .





كما شهدت الفترة الممتدة ما بين عام ١٦٠٣م وعام ١٨٦٧م اوجها مختلفة في استخدام الورق شملت صناعة المظلات والأبواب المنزلقة . لكن معظم أنواع الورق في تلك الفترة كان يستخدم في انتاج الكتب بعد ان تراجعت أهمية الأبواب المنزلقة من حيث الجودة والكفاءة .

وعلى الرغم من ان التقدم التكنولوجي الذي شهده القرن الحالي قد ادى الى تطوير أنواع عديدة من الورق من ورق الصحف الى أوراق الحمامات ، فان الطريقة الاساسية في صناعة الورق هي ذاتها منذ أكثر من الف عام . ويمكن ملاحظة ذلك بوضوح في بعض القرى المعروفة بتاريخها الطويل في صناعة الورق .

ان صناعة الورق التقليدية في اليابان ، شأنها شأن غيرها من الصناعات التقليدية الأخرى ، هي محل بحث الآن . ويرى « كوبو » ، وهو من ابناء الجيل الثالث من الحرفيين المهرة في صناعة الورق ، ضرورة الاستمرار في صناعة الورق بالطرق اليدوية لكونها من ارق الحرف اليدوية واكثرها عراقة واتصالا بالتراث الوطني . لكن التكنولوجيا الحديثة قد أدت الى تقليص عدد صناع الورق بالطرق اليدوية منذ الحرب الكونية الثانية . ويعتقد « كوبو » ، ان الورق المصنوع بالطرق اليدوية يفوق كثيرا مثيلة المصنوع بالآلات الحديثة . كما ان الكثير من الناس ما زالوا يحملون نظرة خاصة لرونق الورق المصنوع والمصبوغ بالطرق اليدوية وخاصة استخدامه في صناعة الالعاب الورقية وأوراق اللف . وعلى سبيل المثال، ومن أجل الحفاظ على هذه الصناعة ، يقوم « كازيو كوباياشي » ، وهو من الجيل الرابع من محترفي صناعة الورق ، باعطاء دروس منتظمة تهدف الى تدريب المواطنين على هذه الحرفة الفنية . وهو كغيره من الحرفيين ، يساوره قلق كبير ازاء مصير هذه الحرفة الفنية ، ذلك بعد ان غدت التقنية الميكانيكية تسيطر على هذه الصناعة ، وتتحكم فيها ، الأمر الذي تعذر معه توفر اعداد كبيرة من المهرة لمزاولة هذه الصناعة اليدوية الفنية وترويجها .

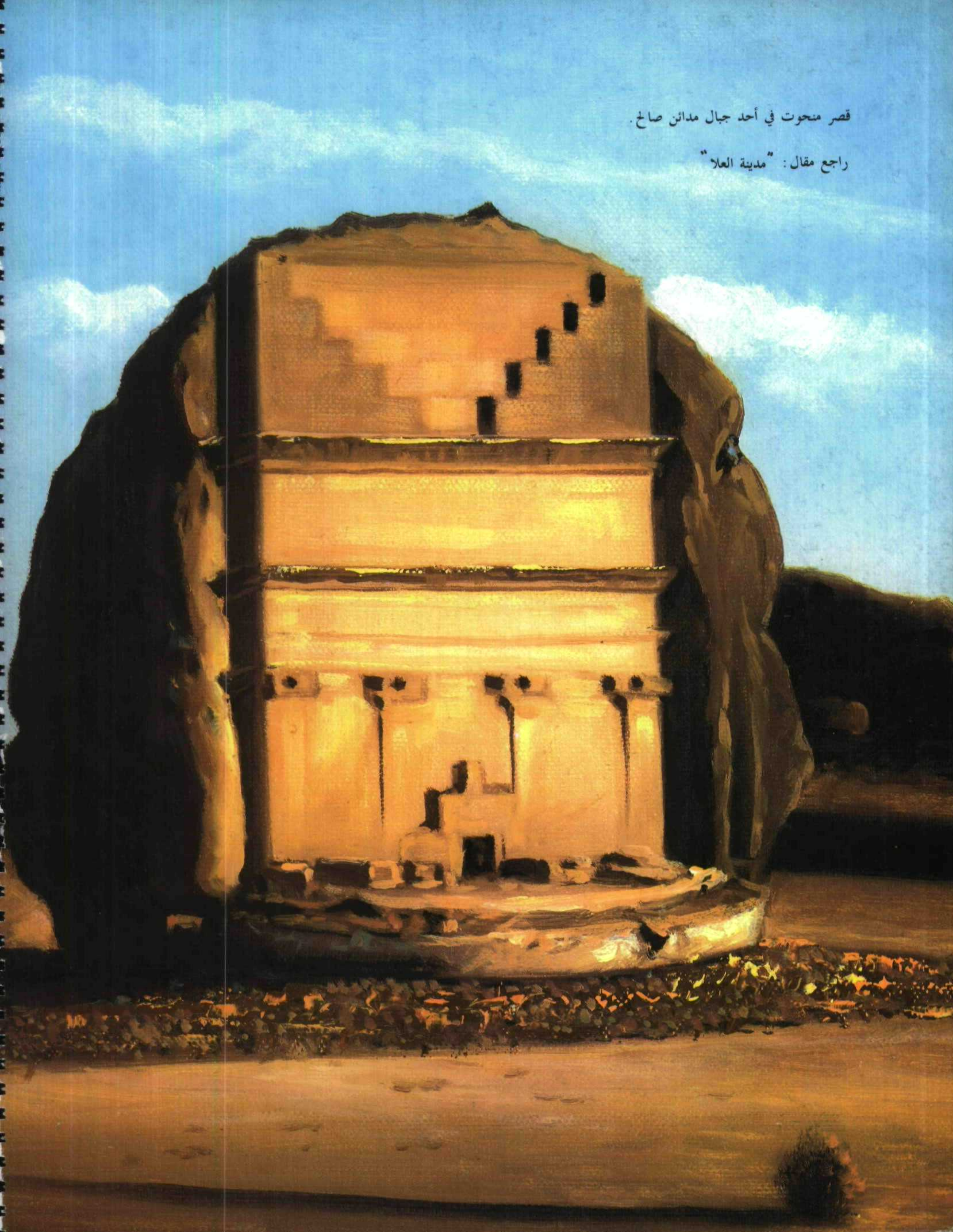
غير ان الاعتقاد السائد لدى العديد من الحرفيين الفنيين في صناعة الورق انه اذا لم تطرأ تطورات جديدة ، فان صناعة الورق اليدوية ستظل مجرد نشاط لجذب السياح ، أو مجرد هواية لذوي الثقافة الشرقية .

هناك اختلاف شاسع الآن بين المعدات الحديثة والاساليب التقنية المستخدمة في صناعة الورق وبين الطرق التقليدية المتبعة في الماضي . ومنذ عام ١٩٧٥ ، حدث توازن أو انخفاض في انتاج لب الخشب وفي رقائق الخشب ، لكن انتاج الورق قد ارتفع بشكل ملحوظ . وقد اسهمت شركة « لوجي » لانتاج الورق ، وهي الرائدة في هذه الصناعة ، في هذه الزيادة . وللمحافظة على الغابات الحرجية وتطويرها ، اقامت الشركة المذكورة معهدا خاصا يتولى القيام بعمليات بحث واسعة متعددة الجوانب بهدف تحريش الغابات والعناية بالاشجار والتلقيح والعناية بالتربة والتسميد فوق بقعة شاسعة من الأرض تبلغ مساحتها حوالي ٧٠٠ فدان . وتهدف أعمال البحث بشكل عام الى تطوير نوع ممتاز من الاشجار السريعة النمو والمقاومة للامراض . كما تجري الشركة حاليا تجارب واسعة على زراعة أنواع جديدة من أشجار الزينة والشجيرات الأخرى بهدف تنسيق الحدائق وتجميل المناظر العامة وزراعة المناطق ذات التربة الرديئة ، أو المعرضة للرياح البحرية . كما تعمل الشركة على تطوير تكنولوجيا جديدة للحصول عل لب الخشب من الاشجار الصلبة ، فضلا عن زراعة الاشجار في البرازيل وماليزيا للاستفادة من اخشابها .

وبعد ، فان صناعة الورق ستظل من الصناعات الاساسية التي تلعب دورا اساسيا في الحفاظ على معالم الحضارة الانسانية وتراثها القومي بكل ما فيها من اصالة الماضي واشراقة الحاضر □


لفائف ضخمة من ورق الصحف في أحد عنابر السفن في طريقها الى انحاء مختلفة من اليابان.

تصوير: اونتكيتد نيوز انترناشونال



قصر منحوت في أحد جبال مدائن صالح.

راجع مقال: "مدينة العلا"